

موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والمضاربية



عصر سلاطين المماليك



أ.د. عطية القوصي

موسوعة الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

٢١

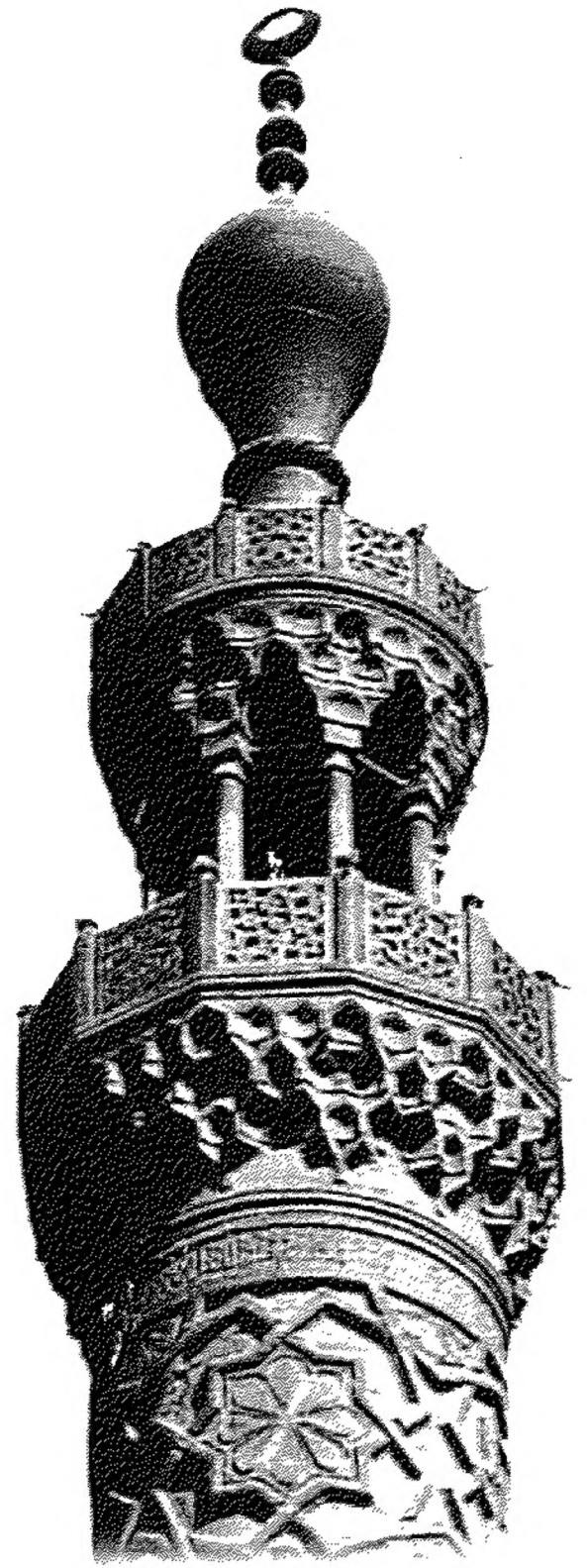
عصر سلاطين المماليك

تأليف

د. عطية القوصي

أستاذ التاريخ الإسلامي

بكلية الآداب - جامعة القاهرة



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مئذنة قايتباي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

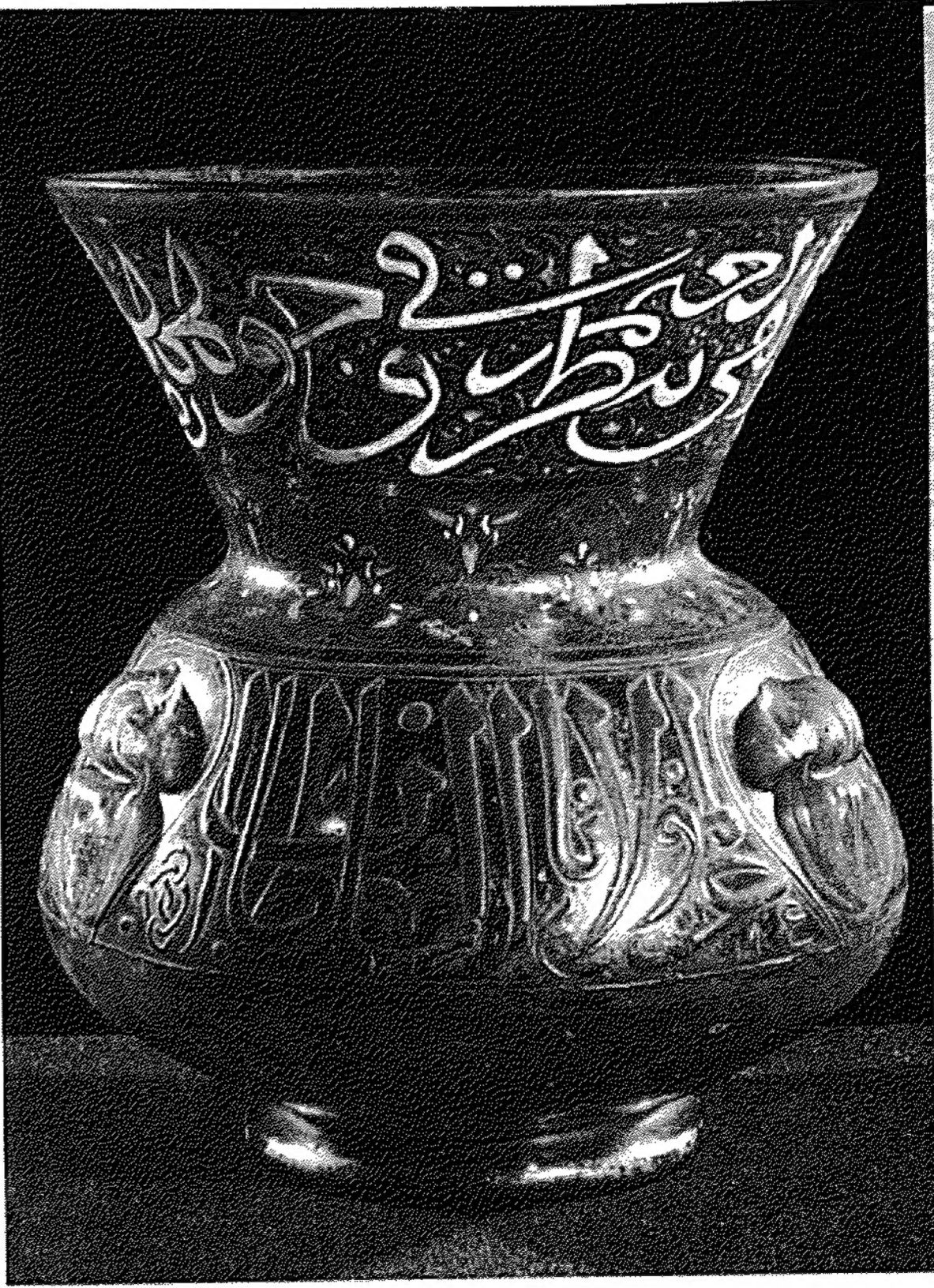
٦ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محمى الدين فتحى الشلوى

التصميم والإخراج غلاف الكمبيوتر
منى حامد عمارة



مشكاة زجاجية مطلية بالمينا - السلطان بيبرس الجاشنكير

- ٩٥٦,٠٦٢ عطية القوصى .
ع ط ع ص عصر سلاطين المماليك / تأليف عطية القوصى . -
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧ م.
أ- ٩٦ د ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة
التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٢١).
بليوجرافية: ص ٩٢ - ٩٤ .
تدمك: ٦ - ٢١٣٤ - ١٠ - ٩٧٧ .
١ - المماليك البحرية. ٢ - المماليك البرجية.
٣ - المماليك وآثارهم المعمارية . أ - العنوان.
ب - السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٣٧٩ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

دار الفكر العربى

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

أ. د سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة - رئيس

اتحاد المؤرخين العرب.

رئيس اللجنة

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

أ. د عادل حسن غنيم

مقرر عام اللجنة

أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار - عميد كلية الآثار - جامعة

أ. د عبد الحليم نور الدين

القاهرة - فرع الفيوم - مدير مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية

مقرر التاريخ القديم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

أ. د إسحق عبيد

مقرر التاريخ الوسيط

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

أ. د عصام الدين عبد الرؤوف

مقرر التاريخ الإسلامى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

أ. د جمال زكريا قاسم

عضوا

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

أ. د عطية أحمد محمود القوصى

عضوا

عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم «سابقا»

أ. د صابر دياب

عضوا

وأستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - جامعة الفيوم.

عميد كلية الآداب - سابقا - جامعة عين شمس. وأستاذ تاريخ العصور

أ. د رافت عبد الحميد

عضوا

الوسطى.

مدير التحرير: الكيمياء: أمين محمد الخضرى

المهندس: عاطف محمد الخضرى

سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم

التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلوى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

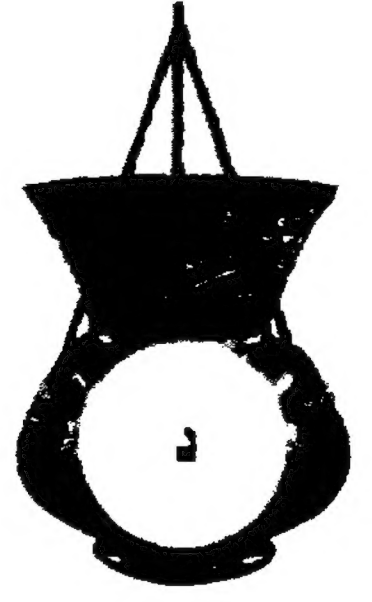
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم السلسلة



التاريخ علم من أجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضي لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

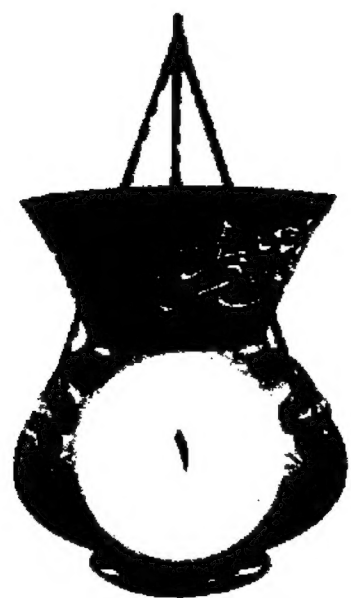
إن الروايات التاريخية قد تتشابه في بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته. . على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتبديل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم في تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها في الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة. .

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



مقدمة

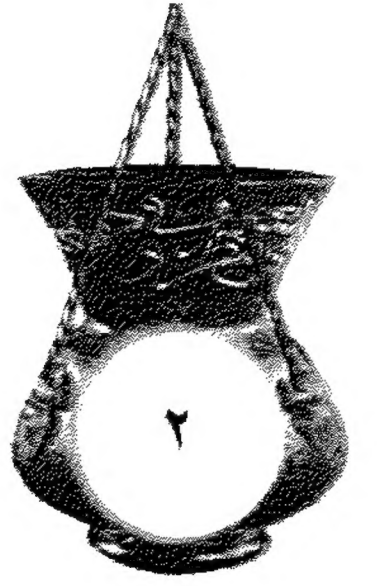
يتناول هذا الكتاب تاريخ حكم سلاطين المماليك الذين حكموا مصر مدة ٢٧٤ عاما، حكم النصف الأول منها المماليك الذين عرفوا بالبحرية (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢م) وحكم النصف الثانى والذين عرفوا بالبرجية أو الجراكسة . من سنة ٧٨٤هـ حتى سنة ٩٢٢هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٦م) حتى الفتح العثمانى لمصر .

وتعتبر فترة حكم سلاطين المماليك لمصر من أزهى تاريخ الحكم لمصر، ذلك لأن هؤلاء المماليك جعلوا من مصر، أيام حكمهم دولة عظمى وإمبراطورية واسعة يخشاها الجميع، وبرغم أن أصول هؤلاء المماليك أصول غير مصرية لكن معظمهم ولد فى مصر فصار مصريا بالمولد والنشأة والتربية، وقد قام هؤلاء المماليك بالحفاظ على استقلال مصر وبالدفء عنها ودرء عدوان أكبر خطرين تعرضت لهما مصر، بل تعرض لهما العالم الإسلامى، وهما: الخطر الصليبي والخطر المغولى .

وقد واصل سلاطين المماليك محاربة الصليبيين وتابعوا نصر الأيوبيين عليهم، بل قاموا بدحرهم وخلع جذورهم نهائيا من بلاد الشام وتطهير الأرض الإسلامية من دنسهم، ونجحوا فى فرض سيادة مصر على حوض البحر المتوسط بسيطرتهم على كل جزره ومرافئه . كذلك تصدى هؤلاء السلاطين للخطر المغولى الذى داهم العالم الإسلامى، وأوقعوا أول الهزائم «للجيش الذى لا يقهر» فى عين جالوت ومرج الصفر، وفى كل نزال وقع لهم مع سلاطين المماليك فحفظوا بانتصاراتهم للإسلام كرامته ورفعوا رايته، وحولوا هؤلاء المغول إلى مسلمين يسبحون لله بحمده ووحدانيته .

وقد أقام هؤلاء السلاطين فى مصر والشام، أيام حكمهم حضارة زاهرة ومدنية شاملة، تشهد على ذلك آثارهم وما خلفوه من مبان ومعمار، وما أقاموه من مساجد ومدارس ومؤسسات

دينية وتجارية تزخر بها مدن مصر والشام فى الوقت الحاضر وتتفاخر بها على مدى الزمان والأيام.



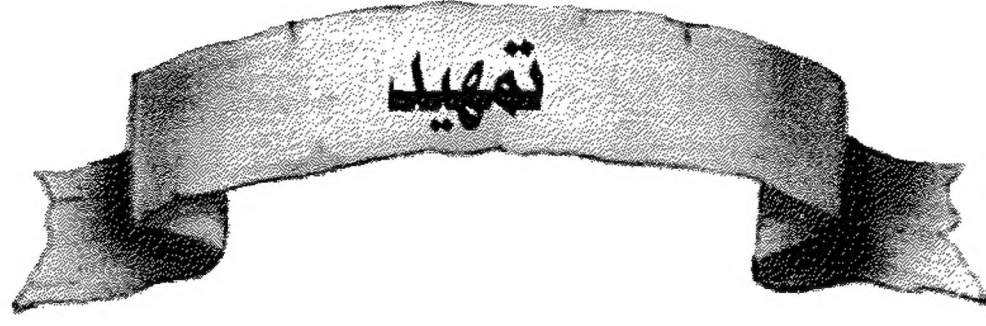
وحقاً، فهؤلاء السلاطين أعطوا للإسلام والمسلمين الكثير وجاد الله بهم على مصر فى الوقت المناسب لتظل شعلة الحضارة الإسلامية مشتعلة على أيديهم ولتظل راية الإسلام مرفوعة خفاقة ولو كره المشركون.

والقارئ العربى فى حاجة ماسة لمعرفة تاريخه وتاريخ أجداده حتى يأخذ الدرس والعظة وحتى يتأكد له أنه سليل أجداد عظام وأبطال ميامين، والله وحده هو المعين.

المؤلف
أ.د / عطية القوصى

سوق المماليك

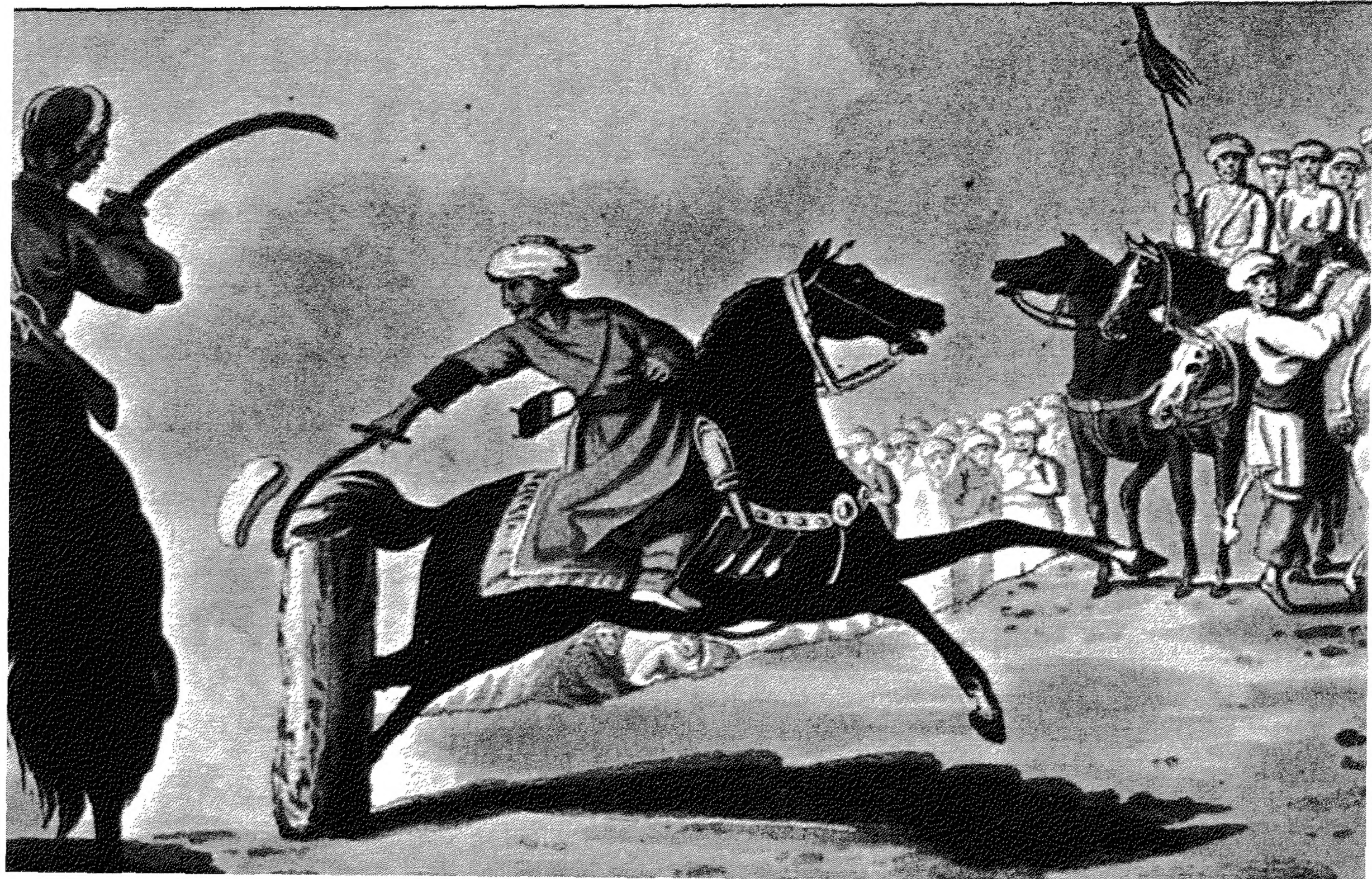


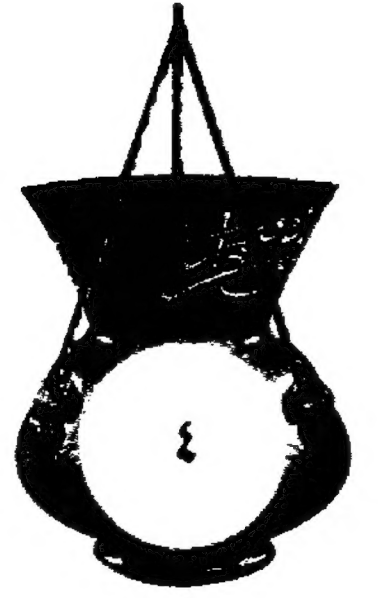


التعريف بالمماليك:

المماليك جمع مملوك والمملوك في اللغة هو العبد المسترق الذي لا يملك حرية نفسه، والمماليك الذين صاروا سلاطيناً في مصر والشام وحكموها، هم الرقيق الذين توافدوا على بلاد العالم الإسلامي منذ العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م) وجلبوا في أول الأمر من وسط آسيا وغربها من منطقة التركستان الروسية، في البلاد التي عرفها المسلمون قديماً باسم بلاد ما وراء النهر، نهر أمادوريا (جيحون)، وكانت هذه البلاد سوقاً هامة لتجارة الرقيق الأبيض، وكانت مدينة سمرقند (عاصمة دولة أوزبكستان الحالية) أهم مراكزها.

التدريبات العسكرية في معسكر المماليك





ولقد كثر استخدام الغلمان المماليك، بعد تربيتهم تربية دينية عسكرية، فى جيوش مختلف الدول الإسلامية فى العراق والشام ومصر، حتى ارتقوا فى سلم الجندية ووصلوا إلى مراتب عسكرية عالية وأصبحوا أرباب السلطنة والنفوذ فى شئون هذه الدول، فى شئون السياسة والعسكرية معاً.

وقد بدأ نفوذ هؤلاء المماليك يظهر فى مصر منذ عهد حكم الطولونيين والأخشيديين لها وخلال حكم دولة الفاطميين. وقد اتبع سلاطين الأيوبيين الذين حكموا مصر بعد الفاطميين، نفس السياسة فى الإكثار من شراء هؤلاء الرقيق الأبيض من المماليك واتخاذهم دعامة لهم تدعم نفوذهم فى داخل البلاد وتدفع الأخطار الخارجية التى تهددهم من خارجها.

وقد نسبت مجاميع المماليك فى مصر إلى من قاموا بشرائهم، كل مجموعة منهم تنتسب إلى شاربها فانتسب من اشتراهم أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين إليه وعرفوا بالأسدية، أما الصلاحية فهم ينتسبون إلى صلاح الدين الأيوبي نفسه، والعادلية إلى العادل أخى صلاح الدين، والكاملية إلى الملك الكامل محمد بن أخى صلاح الدين، والصلاحية إلى الصالح نجم الدين بن الملك الكامل، وهكذا.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، قد استكثر من استخدام هؤلاء الغلمان المماليك فى جيشه وحرسه الخاص بعد أن تعرض لمؤامرات كثيرة من جانب أقاربه قبل وصوله إلى كرسى السلطنة، ولم يصل الصالح إلى السلطنة إلا بمساعدة هؤلاء المماليك. وكان الصالح قد اشترى أعداداً كبيرة من هؤلاء الغلمان الأتراك قُدر عددهم بألف مملوك من إقليم (خوارزم) وسماهم المماليك الصلاحية، وأسكنهم قلعة جزيرة الروضة التى أنشأها لنفسه ولهم فى (بحر النيل) واتخذها سكناً له ولهم، فسُمى هؤلاء المماليك الصلاحية باسم المماليك البحرية، تمييزاً لهم عن ممالك أخر جاءوا بعدهم وسكنوا أبراج قلعة الجبل وعرفوا بالمماليك البرجية، والذين تولى سلاطينهم حكم مصر والشام والحجاز بعد انتهاء حكم سلاطين المماليك البحرية.

وقد أحرز سلاطين المماليك البحرية ثروات كثيرة وعاشوا فى رفاهية، وأنفقوا الكثير من المال على المنشآت الدينية والمؤسسات التجارية والمباني المعمارية. يدل على ذلك كثرة أسماء المدارس والمساجد والحمامات والسبل والخانات التى تحمل أسماءهم. كذلك أصبح المماليك



البحرية مصدر قلق ورعب لغيرهم من طوائف المماليك ولسكان القاهرة، وكانت أفعالهم مثلاً للمساوي الخطيرة التي اتصف بها حكم المماليك عموماً في مصر والشام.

ورغم مساوي وطغيان واستبداد حكام المماليك البحرية فإنه يُذكر لهذه الفئة من المماليك وقوفهم وتصديهم للأخطار الخارجية التي تعرضت لها بلاد مصر والشام من جانب الصليبيين والمغول، وقد أبلت جماعة المماليك البحرية في محاربة الصليبيين حين هاجموا ثغر دمياط المصري وكان لهم الفضل في مساعدة المصريين في هزيمة الصليبيين في معركة فارسكور والمنصورة، فظهرت قوة هؤلاء المماليك البحرية من وقتها واشتهر أمرها.

ولقد جاءت فرصة تولى المماليك البحرية أمر السلطنة في أعقاب وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ذلك أنه لما مات الصالح ولم يكن له ولد ذكر يرث ملكه، تولت أمر مصر من بعده زوجته «شجر الدر» لعدة أيام، ثم أرسلت إلى ابنه المعظم توران شاه، الذي كان يقيم في حصن كيفا، ليحجى ليتولى أمور البلاد. وبعد أن وصل توران شاه إلى مصر قام بالتضييق على زوجة أبيه شجر الدر ومحاسبتها على تركه والده، وأظهر رغبته في الخلاص منها ومن أعوانها من رجال المماليك البحرية. وكان الفارس (أقطاي) من أكابر المماليك البحرية وهو الذي أعان توران شاه في حربه ضد الصليبيين الذين هاجموا سواحل مصر غداة وصوله إليها وساعده في إيقاف زحفهم ودحره، وقد وعده توران شاه بولاية إحدى الإمارات مكافأة له، إلا إنه لم يف بوعده، الأمر الذي جعل أقطاي يتفق مع بقية قواد المماليك البحرية على قتله بإيعاز من شجر الدر.

وبعد مقتل توران شاه، آخر سلاطين الأيوبيين، أجمع قواد المماليك البحرية على أن يقيموا شجر الدر - وهي مملوكة مثلهم - سلطنة على مصر والشام بعده، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى كبير قواد المماليك البحرية مقدم العسكر. وتولت شجر الدر حكم مصر والشام لمدة ثمانين يوماً، دبرت خلالها أمور البلاد، ووَقَّعت على الكتب والمراسيم باسم (أم خليل) ونقشت اسمها على السكة إلى جوار اسم الخليفة العباسى المستعصم بالله. وتعتبر شجر الدر أول امرأة تحكم مصر والشام في تاريخ مصر الإسلامية، وهي تعتبر أيضاً أول حكام دولة المماليك البحرية. وقد تزوجت شجر الدر من مقدم العسكر عز الدين أيبك التركمانى، وتنازلت له عن السلطنة بعد أن أرسل الخليفة العباسى نداءً إلى المصريين يستنكر فيه أن تحكمهم امرأة وأرسل لهم من بغداد كتاباً يقرعهم فيه ويوبخهم على ذلك.



ولقد حكم
سلاطين المماليك
مصر والشام حتى
الفتح العثماني
لهم لمدة ٢٧٤
عاماً، حكم
النصف الأول
منها: المماليك
البحرية (٦٤٨هـ -
٧٨٤هـ / ١٢٥٠ -
١٣٨٢م)، وحكم
النصف الثاني
منها: المماليك
البرجية. الجراكسة
٧٨٤هـ - ٩٢٢هـ /
١٣٨٢ - ١٥١٦م).

خريطة دولة المماليك

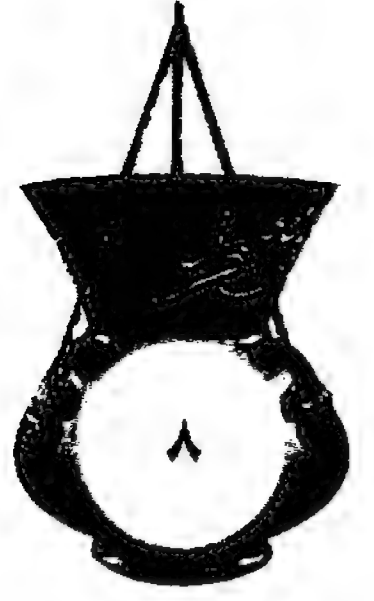
ولقد تألف سلاطين دولة المماليك البحرية من ٢٥ سلطاناً، كانت شجرة الدر أولهم وكان الملك الصالح زين العابدين حاجي بن شعبان آخرهم وهو الذي تولى السلطنة لمدة عام واحد



(٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م) وجاء ترتيب هؤلاء السلاطين وسنّ حكمهم كالتالي :

تاريخ تولي ميلادي	تاريخ تولي هجري	سلاطين المماليك البحرية
١٢٥٠	٦٤٨	١- السلطنة شجر الدر (أم خليل)
١٢٥٧-١٢٥٠	٦٥٥-٦٤٨	٢- السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني
١٢٥٩-١٢٥٧	٦٥٧-٦٥٥	٣- السلطان الملك المنصور علي بن المعز
١٢٦٠-١٢٥٩	٦٥٨-٦٥٧	٤- الملك المظفر سيف الدين قطز
١٢٧٧-١٢٦٠	٦٧٦-٦٥٨	٥- الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري
١٢٧٩-١٢٧٧	٦٧٨-٦٧٦	٦- السلطان السعيد ناصر الدين محمد بركة
١٢٧٩	٦٧٨	٧- السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس
١٢٩٠-١٢٧٩	٦٨٩-٦٧٨	٨- السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون
١٢٩٤-١٢٩٠	٦٩٣-٦٨٩	٩- السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون
١٢٩٥-١٢٩٤	٦٩٤-٦٩٣	١٠- الملك الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)
١٢٩٧-١٢٩٥	٦٩٦-٦٩٤	١١- السلطان العادل زين العابدين كتبغا
١٢٩٩-١٢٩٧	٦٩٨-٦٩٦	١٢- السلطان حسام الدين لاجين المنصوري
١٣٠٨-١٢٩٩	٧٠٨-٦٩٨	- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)
١٣٠٩-١٣٠٨	٧٠٩-٧٠٨	١٣- السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير
١٣٤٠-١٣٠٩	٧٤١-٧٠٩	- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)
١٣٤١-١٣٤٠	٧٤٢-٧٤١	١٤- السلطان المنصور سيف الدين أبوبكر
١٣٤٢-١٣٤١	٧٤٣-٧٤٢	١٥- السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر
١٣٤٢	٧٤٣	١٦- السلطان الناصر شهاب الدين أحمد علي بن الناصر
١٣٤٥-١٣٤٢	٧٤٦-٧٤٣	١٧- الملك الصالح عماد الدين إسماعيل
١٣٤٦-١٣٤٥	٧٤٧-٧٤٦	١٨- الملك الكامل سيف الدين شعبان
١٣٤٧-١٣٤٦	٧٤٨-٧٤٧	١٩- الملك المظفر زين الدين حاجي
١٣٥١-١٣٤٧	٧٥٢-٧٤٨	٢٠- الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي
١٣٥٣-١٣٥١	٧٥٥-٧٥٢	٢١- الملك الصالح صلاح الدين صالح
١٣٦٢-١٣٥٣	٧٦٤-٧٥٥	٢٢- الملك المنصور صلاح الدين محمد
١٣٧٦-١٣٦٢	٧٧٨-٧٦٤	٢٣- الملك الأشرف أبو المعالي شعبان
١٣٨١-١٣٧٦	٧٨٣-٧٧٨	٢٤- الملك المنصور علاء الدين علي بن شعبان
١٣٨٢-١٣٨١	٧٨٤-٧٨٣	٢٥- الملك الصالح زين العابدين حاجي بن شعبان

الفصل الأول دولة المماليك البحرية



ولاية المماليك سلطنة مصر والشام:

بعد تنازل شجرة الدر عن السلطنة لزوجها عز الدين أيبك التركمانى، أقيم أيبك سلطاناً (آخر جمادى الأخرى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، باسم الملك المعز، وبعد سلطنة المعز بخمسة أيام ثارت المماليك البحرية الصالحية وأرادوا أن يكون عليهم رجل من بنى أيوب سلطاناً يجتمع الكل على طاعته، وقد تزعم هذا الأمر من الأمراء المماليك البحرية الصالحية كل من: فارس الدين أقطاي، وركن الدين يببرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى، وشمس الدين سنقر الرومى، واتفقوا على أن يكون الملك المعز أتابكاً عليهم ووصياً على السلطان، واختاروا الأشرف موسى، ابن الملك الناصر يوسف الأيوبى سلطاناً عليهم، وكان صبيّاً فى العاشرة من عمره، فأحضروه ونصبوه سلطاناً وخطبوا له وجعلوا الملك المعز أتابكاً له.

ولقد نجح المعز أيبك فى القضاء على مناوئيه من أمراء المماليك البحرية، وبخاصة بعد التخلص من الأمير أقطاي بقتله سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م، وخلع الملك الأيوبى الأشرف موسى، آخر حكام الأيوبيين فى مصر، واستقل بملك البلاد استقلالاً تاماً، ولم يزل المعز أيبك سلطاناً على البلاد، بعد أن تخلص من مناوئيه، مدة سبع سنوات حتى لقي حتفه على يد مماليك زوجته شجر الدر فى ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م. وكان سبب قتله أنه أراد أن يتزوج على شجر الدر من ابنة الملك الرحيم صاحب الموصل، وكانت شجر الدر شديدة الحب له والغيرة عليه، فلم تتحمل ذلك وعملت على الخلاص منه بأمرها لخدمها بقتله، وهو فى الحمام وتنفيذهم لأمرها.

وخلف المعز فى السلطنة ابنه الملك المنصور على بن المعز أيبك، وكان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وقد انتقم وأمه لمقتل أبيه من شجر الدر بقتلها فى الحمام (ضرباً بالقباقيب). ولم يستمر على بن أيبك فى السلطنة إلا سنتين وسبعة أشهر، وقد انتزعها منه أتابكه سيف الدين قطز، الذى قام بنفيه هو وأمه خارج البلاد.



ومع تولى قطز السلطنة على مصر والشام، كان عليه أن يواجه خطراً داهماً تعرضت له بلاد العالم الإسلامي وهو خطر هجمات جحافل المغول التي خرجت من بلاد منغوليا والصين كالجراد في أعداد هائلة تبعد الأخضر واليابس وتدمر وتحرق كل ما يقابلها من زرع ومعمار، وتقتل وتسفك دم كل من يقابلها من نساء وأطفال ورجال. وكان خروج هؤلاء المغول التتار لغزو العالم بعد أن توحدوا تحت قيادة زعيمهم جنكيز خان، وقد أرسل قائده الشهير هولاكو خان

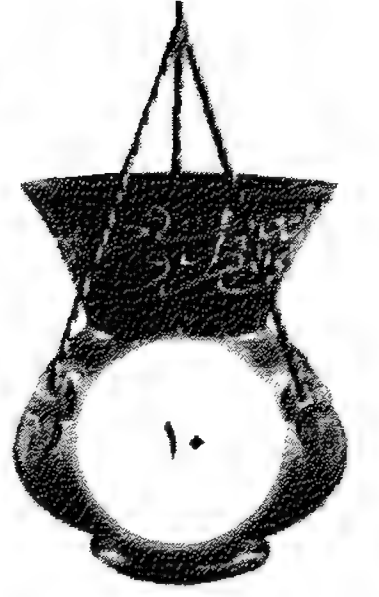
يقود هذه الجحافل المتبربرة على بلاد الدولة الإسلامية، فاجتاحت أمامها بلاد ما وراء النهر (نهر سيحون) وبلاد فارس والعراق وسقطت في يدها مدن سمرقند وتبريز وهرات وبخارى ونهاوند ومرو والموصل وغيرها من كبريات البلاد وخلقوها وراءهم خراباً ودماراً، وحاصروا بغداد عاصمة دولة الخلافة وأسقطوها في أيديهم بعد أن أشاعوا فيها الحرق والتدمير والتخريب وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله، في شهر صفر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م. وتوغلت هذه القوات المدمرة في بلاد العراق والشام واستولت على غالبية بلاد الشام من حلب إلى غزة وأعملت فيها الخراب والقتل والدمار وأوقعت الرعب والفرع في قلوب أهلها، فقتل منهم من قتل وهام على وجهه من لاذ بالفرار إلى الصحراء وأوكار الجبال. وبات الخطر يتهدد مصر حين وصلت أعداد هائلة من هذه الجماعات إلى حدودها.

ولم يلبث أن وصل إلى السلطان سيف الدين قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو يطلب منه فيه الاستسلام، ويقول له فيه ما نصه: «ليعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه.. فاتعظوا بما حل بغيركم فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى».

ولكن قطز لم ينثن أمام ذلك التهديد، وقام بقتل رسل هولاكو وعلق رؤوسهم على باب زويلة، أحد أبواب القاهرة الرئيسية رافعاً راية التحدى.

ولما وجد قطز تردداً من بعض أمراء المماليك البحرية في الخروج لملاقاة المغول بسبب السمعة السيئة التي سبقتهم إلى الناس، صاح فيهم محفزاً لهم قائلاً: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزو كارهون؟ أنا متوجه فمن اختار الجهاد فليتبعني ومن لم يختار ذلك فليرجع إلى بيته وأهله فإن الله مطلع عليه وإن خطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين».

موقعة عين جالوت:



وفى تلك الأثناء عاد هولاءكو إلى بلاده وترك وراءه قائده (كتبغا) نائباً عنه فى الشام وقائداً للجيش المتوجه لغزو مصر، وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى إلى أرض فلسطين من بلاد الشام قرر محاربة المسلمين، فاتجه صوب قرية عين جالوت، ما بين بيسان ونابلس، ودارت هنالك معركة رهيبة بين الجانبين المغولى والإسلامى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٨٥هـ/ سبتمبر ١٢٦٠م؛ تفوق المغول فى بداية اللقاء لكن القائد قطز ثبت فى ميدان القتال وأخذ يحث جنده على الاستبسال فى القتال والفوز إما بالنصر أو الاستشهاد.

وقيل إنه لما اشتد وطيس المعركة ألقى قطز بخوزته عن رأسه إلى الأرض وصاح منادياً: «وا إسلاماه... وا إسلاماه»، وحمل هو ورجاله على العدو فقتلوا منهم عدداً كبيراً، وكان كتبغا القائد ضمن القتلى وكثير من رجاله، ولما رأى الناجون ما حل بقائدهم لاذوا بالفرار وولوا الأدبار.

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعد من أهم المواقع فى التاريخ الإسلامى، بل أهمها على الإطلاق، ذلك لأنها كانت مفرق طرق فى تاريخ الإسلام وأنها أوقفت المد المغولى الذى

معركة عين جالوت





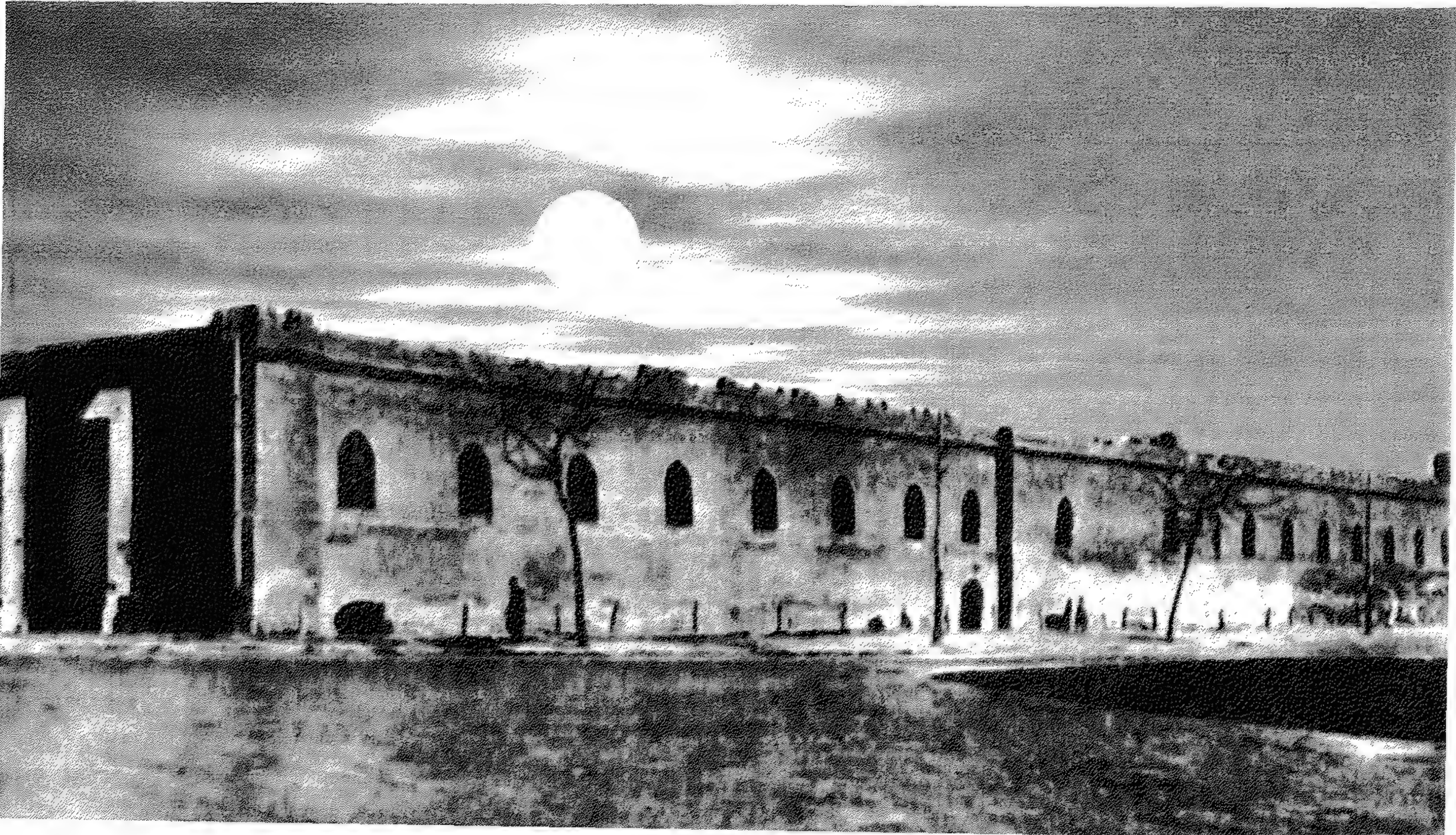
استهدف الإسلام والمسلمين ، وأنها كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ العالم الإسلامي ، وأنها كانت بداية النهاية لطغيان المغول وبداية الاندحار للشعب الذي وصفه زعيمه هولوكو «بأنه شعب لا يقهر» ، ولقد قُهرُوا في عين جالوت وأنقذت مصر والشام من خطرهم وتبعهم العراق في ذلك .

وإذا كان المغول قد استمروا ، بعد ذلك يهددون الشام فإن تهديدهم ، بعد دحرهم في عين جالوت ، لم يتخذ شكل الغزوات الكاسحة المدمرة ، كما كان

الحال من قبل ، ولكنه اتخذ طابع الإغارات المتقطعة التي تنتهي بالانسحاب السريع عندما تخرج الجيوش الإسلامية من مصر للقائهم . وقد نجح السلطان قطز ، بعد المعركة ، في استرداد دمشق ومعظم بلاد الشام من أيدي المغول ، في حين قام الأمير بيبرس البندقداري بتتبع فلول المغول ومطاردتهم حتى حلب . وتمكن قطز من تطهير بلاد الشام من دنس المغول وإعادة الحياة فيها إلى مجراها الطبيعي ، وإعادة أمراء بني أيوب إلى ولاياتهم في حمص وحماة واعترفهم بتبعيةهم لسلطنة المماليك وتعهدهم بدفع جزية سنوية للسلطان قطز والدعاء له من فوق منابر مساجدهم .

وكان الانتصار في مصر عظيمًا فقد عم الفرح والسرور البلاد والعباد فدقت الطبول في القلعة وأقيمت الزينات في جميع أنحاء القاهرة . ولبست العاصمة أبهى حللها استعدادًا لاستقبال السلطان سيف لدين قطز بطل الانتصار على المغول ، ولكن قطز عاد إلى القاهرة محمولاً على

جامع الظاهر بيبرس - الواجهة الشرقية





الأعناق قتيلاً بعد أن قُتل غدرا وهو فى طريق عودته إليها وهو يحمل إكليل الغار، قتله قائده بيبرس البندقدارى لتكره بوعده له بإعطائه ولاية حلب وإعطائها بدلاً منه لابن بدر الدين لؤلؤ.

ويحكى المؤرخ المقرئى قصة اغتيال بيبرس لقطز بقوله:

«احترس كل منهما من الآخر واتجه الاثنان فى موكب واحد إلى مصر، ويقال أن بيبرس حدث جماعة من الأمراء فى قتل السلطان المظفر قطز، فأقروه على ذلك وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم وعندما اقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد - صيد الأرناب - فثارت أرنبة وجمحت وعندئذ نسي قطز أن يحترز على نفسه وتغيب الأرنبة حتى ابتعد عن رفاقه، وكان أن استغل المتآمرون الفرصة فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس من السلطان يطلب طلباً فأجابه قطز إلى طلبه فتظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان ولكن لم يكد قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه». وقد جاءت نهاية بطل عين جالوت المأساوية فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨ للهجرة، بعد حكم دام لعام واحد.

السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى:

تولى السلطنة من بعد السلطان قطز السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى والذي حكم مصر والشام مدة سبعة عشر عاماً، وتوفى فى دمشق سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م. وكان بيبرس من أعظم سلاطين المماليك البحرية، بل أعظم سلاطين المماليك على الإطلاق، وهو يعتبر المؤسس الحقيقى لدولتهم فى مصر والشام لما قام به من تنظيم الإدارة الحكومية واستحداث الكثير من الوظائف الهامة فى مصر والشام، فضلاً عن إعداده جيشاً قوياً وأسطولاً كبيراً ليحارب به أعداء الدولة من مغول و صليبيين.

ومن أهم الأعمال التى قام بها السلطان بيبرس إحياءه الخلافة العباسية فى مصر بعد سقوطها ونهايتها فى العراق، ومبايعة المستنصر بالله أحمد بن الظاهر، ابن الناصر العباسى، أحد أقرباء المستعصم بالله، بالخلافة ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى القاهرة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م. وقد استهدف بيبرس من وراء ذلك اعتراف الخليفة الجديد بشرعية حكمه، وهو مملوك لمصر والشام وكسب المماليك الشرعية فى حكمهم من الخليفة. كذلك استحدث بيبرس نظام ولاية العهد فى دولة المماليك، فورث عرش سلطنة مصر، بناءً على ذلك اثنين من أبنائه من بعده وهما: السعيد بركة خان، ثم العادل بدر الدين سلامش.



ولقد حارب بيبرس الصليبيين وكذلك حارب المغول.

أما بصدد حربه للصليبيين فقد واصل بيبرس حروب الأيوبيين ضدهم، وقد تجددت الحرب بين المسلمين والصليبيين برغم الهزيمة الساحقة التي سبق أن لحقت بهم، وبقائد حملتهم بقيادة الملك الفرنسي «لويس التاسع» الذي أسر في معركة فارسكور وسُجن في دار القاضي ابن لقمان بمدينة المنصورة. وقد فك هذا الملك أسره بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال وبعد أن وافق على الانسحاب من ثغر دمياط دون شروط.

وقد اتجه هذا الملك، بعد فك أسره، إلى عكا حيث حاول الانتقام لما وقع له في المنصورة وفارسكور وبعد أن قضى لويس التاسع أربع سنوات بمدينة عكا يجهز خلالها حملة صليبية جديدة ضد مصر إلا أنه لم يفلح في ذلك وعاد إلى بلاده فرنسا بخفي حنين يجر أذيال الخيبة سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م، دون أن يحقق مطامعه وذون أن يثار لكرامته مما وقع له على يد المسلمين.

وجاء رد فعل بيبرس بقيادة حملاته ضد الصليبيين، بعد أن تخلص من مشاكله الداخلية فأغار على مدن قيسارية وحيفا وأرسوف واستولى عليها واستخلصها من أيديهم سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م. وفي العام التالي استولى على مدينة صيدا الساحلية ويافا وأرمينية الصغرى. وكان أكبر انتصار لبيبرس على الصليبيين حين نجح في إسقاط إنطاكية في يده، وقد كانت أقوى الإمارات الصليبية المتبقية بالشام، سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م، بعد إحكام الحصار عليها لعدة شهور، وكان لسقوط إنطاكية في يد بيبرس أثر هام في كسر شوكة الصليبيين عموماً.

ولم يكتف بيبرس بمحاربة الصليبيين في البر وحسب، بل حاربهم أيضاً في البحر، فاستولى على جزيرة قبرص التي كانت خاضعة لبيزنطة وتقوم بإرسال الإمدادات للصليبيين. وقد أراد بيبرس باستيلائه على هذه الجزيرة أن يعزز مكانة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط وأن يحول هذا البحر من بحيرة رومية إلى بحيرة إسلامية.

وأثناء حربه مع الصليبيين وجد بيبرس ضرورة القضاء على نفوذ جماعة الباطنية الإسماعيلية (الحشاشين) في بلاد الشام. وكانت هذه الجماعة قد قامت بدور خطير في تاريخ الحروب الصليبية بمحالفتهم للصليبيين وإظهار تبعيتهم لهم ومساعدتهم لهم، فقام بيبرس بالاستيلاء على جميع حصونهم وقلاعهم بالشام وأراح المسلمين من شرهم وإفسادهم.

أما عن حرب بيبرس مع المغول فإننا نرى بيبرس يقوم بمحاربة مغول فارس دون بقية المغول. وكان المغول على عهد بيبرس قد انقسموا إلى معسكرين: معسكر معاد، وهم مغول فارس،

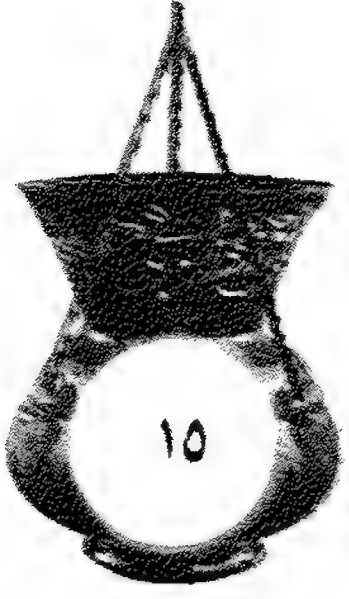
ومعسكر مسالم وهم مغول القبجاق الذين عرفوا (بالقبيلة الذهبية)، فى المنطقة شمال بحر قزوين والبحر الأسود.



هذا ولم يكن مغول فارس قد نسوا ما حل بهم من هزيمة فى عين جالوت وكانوا قد ارتدوا مؤقتاً إلى ما وراء الفرات على أمل تجميع صفوفهم واستعادة قوتهم ومعاودة هجومهم على بلاد الإسلام؛ لذلك تكررت إغارتهم على بلاد الشام من حين لآخر طوال عصر حكم المماليك. وقد حاول المغول إقامة جبهة موحدة مع الصليبيين ضد المسلمين لكن الظاهر بيبرس نجح فى إفشال هذا المشروع الصليبي المغولي، بعقده تحالفاً مضاداً مع مغول القبجاق. وقد ساعد فى إتمام هذا التحالف بينهما اعتناق الملك القبجاقى (القبجاقى) بركة خان لدين الإسلام. وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين المملوكى والقبجاقى بزواج الظاهر بيبرس من ابنة الملك بركة خان. وأصبح التحالف بين مصر المملوكية ومغول القبجاق، منذ ذلك الوقت، ركناً تقليدياً من أركان سياسية دولة المماليك بمصر والشام، وقد ساعد هذا التحالف فى وقوف سلاطين المماليك موقفاً حازماً من مغول فارس.

وفى سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م هاجم مغول فارس بلدة البيرة الفلسطينية وحاصروها، فسارع بيبرس على رأس قواته لفك الحصار عنها فهرب المغول فاكين الحصار عنها بمجرد أن شعروا بمقدم بيبرس. وبعد موت كبير مغول فارس هولاكوخان فى نفس العام، خلفه على الحكم ابنه (أبغاخان) الذى أرسل غداة تسلمه الحكم، فى طلب مصالحة بيبرس. لكن بيبرس لم يجبه إلى ذلك بسبب إساءات مغول فارس المتكررة لدولة الإسلام، فرد الملك المغولى على أثر الرفض من جانب بيبرس بمحاولة إقامة حلف صليبي مغولى ضد المسلمين وإرسال جيش مشترك منهما لحربهم. وقام المغول آنذاك بعدة غارات على مدينة حلب، فتصدى لهم بيبرس بقواته وردهم عنها وأمنها من خطرهم واستمرت هذه المناوشات قائمة بين الطرفين الإسلامى والمغولى حتى وفاة بيبرس سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م.

ولقد حدثت فترة اضطرابات كبرى فى الدولة المملوكية عقب وفاة بيبرس استمرت مدة عامين كاملين، فقدت خلالها البلاد الأمن والأمان الذى كانت تتمتع به فى عهده، وساد الاضطراب وعمت الفوضى البلاد، الأمر لذى أطمع فيها الأعداء من صليبيين ومغول. وقد تولى حكم البلاد فى هذين العامين اثنان من أبناء بيبرس؛ واحد منهما بعد الآخر؛ هما محمد بركة خان ثم بدر الدين سلامش.



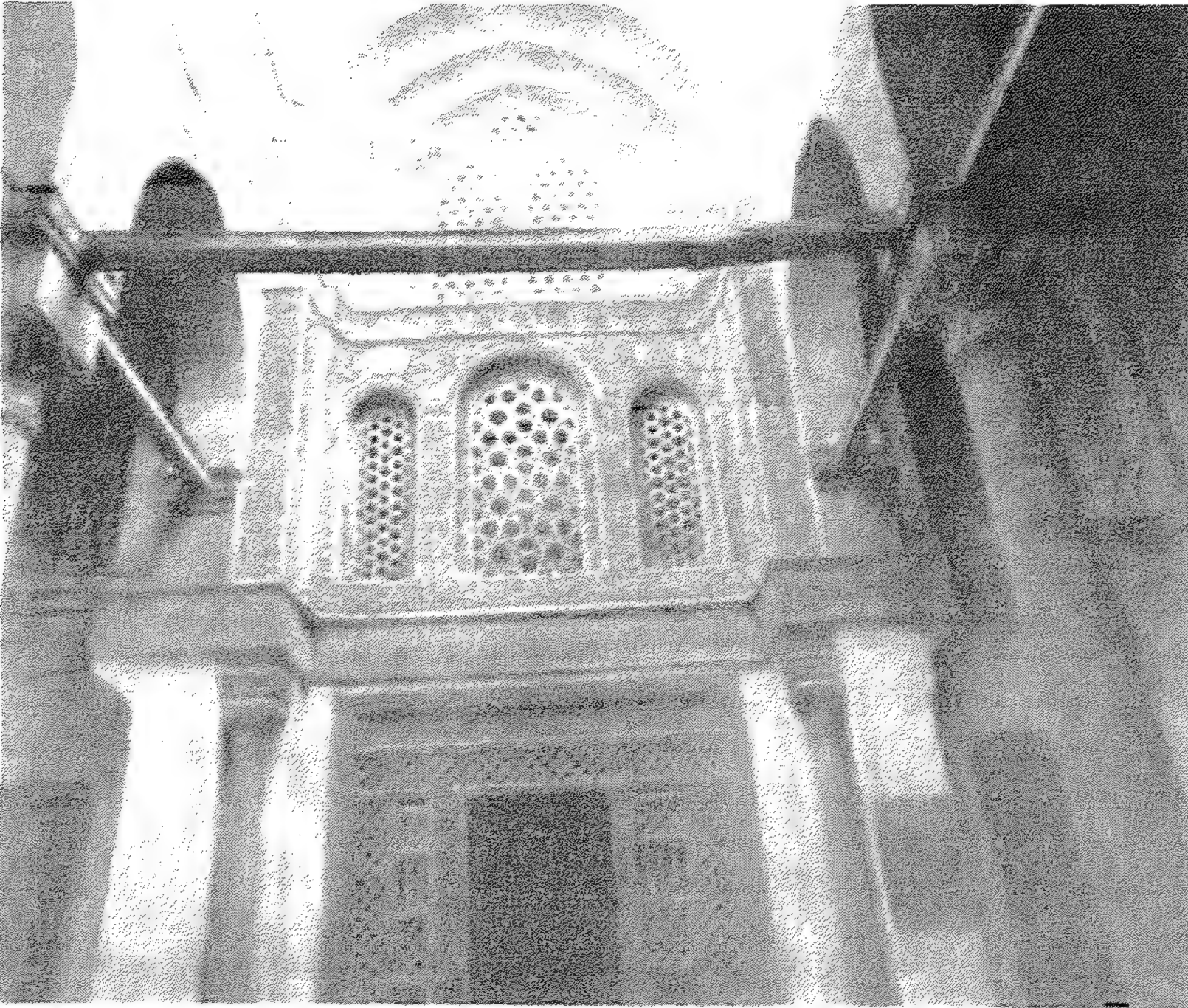
وقد انتهز مغول فارس فترة الضعف هذه التي أصابت الدولة فهاجموا أملاكها وحاولوا القضاء عليها والثأر لهزائمهم منها، فهاجموا مدينة حلب وأحكموا الحصار حولها وكادوا أن يسقطوها في أيديهم لولا أن الله تعالى أنقذ البلاد وأزاح عنها هذا البلاء وذلك بأن بعث لها من يخلصها من عدوان المغول وهو القائد المظفر الحكيم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذي تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م.

السلطان سيف الدين قلاوون (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م):

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحى النجمى، السابع من سلاطين المماليك البحرية، وهو أحد رجال المماليك البحرية اشتراه علاء الدين آقسنقر بألف دينار، فعرف بالألفي.

ولما مات الأمير علاء الدين انتقل قلاوون إلى حيازة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأضيف لقب الصالحى النجمى إلى لقب الألفي. وسرعان ما أخذ نجم قلاوون فى الصعود فى الأحداث التى

صحبت قيام دولة المماليك، إذ كان أحد زعماء البحرية البارزين، وخاصة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى اعتمد عليه كثيرا فى أعماله السلمية والحربية، ولما لحظ بيبرس ازدياد نفوذ قلاوون وسطوع نجمه وعظم مكانته بين قادة المماليك البحرية تخوف منه أن يطمع فى عرش البلاد فى حياته أو بعد مماته، وكان بيبرس قد جعل ولاية العهد من بعده، كما أسلفنا، لابنيه بركة ثم سلامش.



مدرسة ومسجد السلطان قلاوون

البلاد فى حياته أو بعد مماته، وكان بيبرس قد جعل ولاية العهد من بعده، كما أسلفنا، لابنيه بركة ثم سلامش.



وحتى يضمن بيبرس ولاء قلاوون لما خطط له من ولاية العهد لجأ بيبرس إلى حيلة ذكية ظن أنها تضمن بقاء السلطنة من بعده لأبنائه فقام بتزويج ابنه بركة من ابنة قلاوون سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م. ولكن هذه المصاهرة وهذا الزواج السياسى لم يوقف تطلعات قلاوون للوصول إلى الحكم. فلم يكد بيبرس يفارق الحياة حتى أخذ قلاوون يدبر لذلك مع حرصه على عدم كشف مطامعه، وقد نجح قلاوون، بفضل حرصه وذكائه، أن ينفذ أطماعه بتدرج بطيء. فلما تولى بركة السلطنة، ولم يكن كفتاً لها واشتد حصار الأمراء له ومطالبتهم عزل نفسه، لم يتدخل قلاوون فى الأمر إلا بتقديم النصح لزوج ابنته بالتنازل على إرادة أمراء المماليك البحرية. ولم يكن أمام بركة سوى الإذعان لمشورة حميه بالتنازل عن السلطنة لأخيه بدر الدين سلامش، الطفل الذى لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره. وكان فى إمكان قلاوون أن يعتلى عرش السلطنة آنذاك ولكنه أمعن فى التظاهر بعدم الرغبة فى ذلك ووافق على تولى سلامش السلطنة بعد أخيه على أن يكون هو أتابكاً له. وبالفعل تم ذلك وصار هو -وهو فى منصب أتابك العسكر- السلطان الحاكم الفعلى فى البلاد وأخذ قلاوون يمكن لنفسه خلال فترة الوصاية القصيرة على السلطان الطفل بإحسانه وإغداقه الأموال على زملائه من أمراء المماليك البحرية الصاحية واستمالتهم إلى جانبه، وبتخلصه من بعض الأمراء المنافسين له فى منصب السلطنة، ومن عدد كبير من المماليك الظاهرية ممالك الظاهر بيبرس.

ولما استوى الأمر لقلاوون دعا الأمراء وتحدث معهم فى عزل سلامش وتولية السلطنة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م. ولقد أجمع المؤرخون الذين أرخوا لدولة المماليك ولتاريخ مصر الإسلامية عموماً، بوصف السلطان المنصور قلاوون بأطيب الصفات، فمنهم من وصفه بالحلم، وعدم الميل لسفك الدماء والبعض الآخر وصفه بالمهابة والشجاعة وطيب الأفعال والخصال. وفى ضوء هذه الخلال الحسنة التى توافرت فى هذا السلطان فسر المؤرخون استمرار الحكم فى بيته مدة قرن من الزمان - «أن الله تعالى أكرمه فى ذريته وبارك له فيها وجازاه بالحسنة على كريم خصاله وعظيم أفعاله».

ولقد واجه قلاوون صعاباً كثيرة فى بداية حكمه، استطاع بفضل شجاعته وحسن سياسته وسلاسة قيادته التغلب عليها، فتعرض للشورات الداخلية من قبل أمراء المماليك المنافسين له وبخاصة المماليك الظاهرية، وقد جعله الموقف المعادى من جانب المماليك الظاهرية يفكر جدياً فى أن ينشئ لنفسه عصبة جديدة من المماليك يعتمد عليها فى مواجهة الخطر فى الداخل والخارج. من أجل ذلك قام قلاوون بشراء أعداد كبيرة من المماليك وأنشأ منهم فرقة جديدة أسكنهم أبراج القلعة



ولذلك عرفوا باسم المماليك البرجية، وهم الذين سيحكمون مصر بعد أن يرثوا دولة المماليك البحرية. وكان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق والشام، من أوائل المنشقين على السلطان قلاوون والرافضين لحكمه ومن غير الراضين على خلع قلاوون لسلامش عن السلطنة وقد قام سنقر بالاستيلاء على قلعة دمشق وأعلن استقلاله بالممالك الشامية، ثم وجه العساكر يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٦٧٨ للهجرة إلى غزة لدفع أي قوات

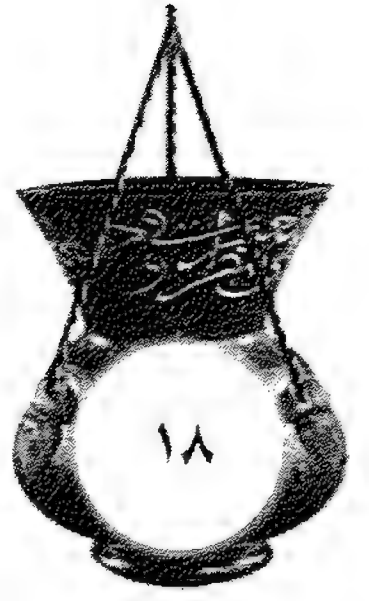
مصرية يوجهها إليه قلاوون من مصر. وكان على قلاوون أن يواجه غزو سنقر فأعد جيشاً كبيراً سار به إلى غزة وقاتل هناك عسكر سنقر وهزمها، واستولت القوات المصرية على قلعة دمشق بعد أن هرب سنقر منها إلى جبل صهيون. ودخل قلاوون دمشق ثم ترددت الرسل بين السلطان وسنقر في تقرير قواعد الصلح بينهما بعد أن جنح سنقر للسلم واعترف بسلطنة قلاوون.

وبينما السلطان في ذلك ورد عليه مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق، فتهياً لقتالهم وأرسل بطلب العساكر المصرية التي ما لبثت أن جاءت دمشق واجتمعت عنده، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف. ووصل الخبر للسلطان قلاوون بوصول مغول فارس إلى أطراف حلب فخلت حلب من أهلها الذين نزحوا إلى جهة حماه وحمص. وجاء سنقر الأشقر بقواته ليعاون قوات السلطان ضد المغول الذين جاءوا في أعداد كبيرة قدرت بما يزيد عن المائة ألف يقودهم منكوتمر بن هولأكو، الذي تولى حكم مغول فارس بعد موت أبيه هولأكو. وكان عدد عسكر المسلمين يقل عن نصف عدد عسكر المغول، والتقى الجمعان بظاهر حمص، وثبت السلطان قلاوون في ميدان القتال وأبدى شجاعة فائقة في ملاقات العدو، وانتهت المعركة بهزيمة المغول وقتل قائدهم وقتل أعداد كبيرة منهم وهروب الباقيين تجاه حلب والفرات.

وكتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصل للناس السرور والفرح الزائد وزينت المدن والقلاع بأبهى زينة، وعاد السلطان إلى دمشق بعد المعركة يوم الجمعة ٢٢ من شعبان. «وخرج الناس إلى ظاهر البلد للقاءه، فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى التتار وبأيديهم رماح عليها رؤوس قتلاهم فكان يوماً مشهوداً» وأقام السلطان بدمشق إلى ثلثي شهر رمضان من العام نفسه وخرج عائداً إلى الديار المصرية وخرج الناس للقاءه وقد تضاعف سرورهم بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخذول.

وفي أول سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م تولى سلطنة مغول فارس تكودار بن هولأكو بعد وفاة أخيه

أُبغَا، وقد اعتنق تكودار الإسلام فى حياه أبيه وتسمى أحمد وعرف بأحمد تكودار وكان أحمد يبلغ من العمر الثلاثين . وحاول أحمد، بمجرد توليه الحكم، التصالح مع دولة المماليك؛ لكن قواده من رجالات مغول فارس رفضوا ذلك وقاموا باغتياله وتعيين ابن أخيه (أرجون) الوثنى مكانه فى الحكم وذلك سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م. وكان أرجون يكره المسلمين كراهية شديدة وقام بقتل أعداد كبيرة منهم فى البلاد التى كانت تحت حكمه الأمر الذى أدى إلى شدة معاداة سلاطين المماليك له. ويعتبر أرجون هذا هو مؤسس دولة المغول الإيلخانية المعادية لدولة المماليك الإسلامية، وقد ظلت هذه الدولة لوقت طويل على حرب مستمرة مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية.



قلاوون والصليبيون

هذا عن حرب قلاوون مع المغول أما حربه مع الصليبيين فقد بدأت حين استغل الصليبيون فرصة انشغال السلطان فى حربه مع المغول وحاولوا استرداد حصن الأكراد من يد المسلمين، لكن محاولتهم باءت بالفشل بسبب متانة هذا الحصن واستبسال الحامية التى به فى الدفاع عنه. وقد نبه هذا الهجوم المشترك من جانب المغول والصليبيين على بلاد العالم الإسلامى إلى ضرورة اتباع القيادة الإسلامية لسياسة التفريق بينهما وعدم تمكينهما من التوحد ضده حتى تتمكن هذه القيادة من ملاقة



مبانى المماليك امتدت إلى القدس



كل منهما على حدة وبناءً على ذلك فقد قام السلطان قلاوون سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، بعقد صلح مع القوى الرئيسية في بلاد الشام، وهم رجال الداوية والاسبتارية وأمير طرابلس، وأوقف هذه القوى على الحياد حتى يتفرغ لمنازلة المغول وعقب انتصار قلاوون على المغول في حمص توجه بقواته لمهاجمة حصن المرقب، أقوى الحصون الصليبية بالشام ونجح في الاستيلاء عليه مما سبب خسارة جسيمة للصليبيين. كذلك انتهز قلاوون فرصة تنازع أمراء الصليبيين في الشام

فيما بينهم واستولى على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م، وعلى طرابلس سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م. ولم يلبث المسلمون أن استولوا على بيروت، وجبله، وهما من المراكز التي أخذها الصليبيون قرب طرابلس، وبذلك لم يتبق للصليبيين في بلاد الشام سوى عكا، أعظم المدن الصليبية وأمنعها آنذاك بعد سقوط بيت المقدس في يد المسلمين، وبعد أن صارت هي المركز الجديد لمملكة بيت المقدس الصليبية.

حكم أسرة قلاوون:

لم يأخذ حكم دولة المماليك بنظام الوراثة في الحكم باستثناء ما حدث في أسرة قلاوون التي ورثت الحكم عن عاقلها قلاوون حتى نهاية دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ولمدة قرن من الزمان. ويمثل العصر الذي حكمت فيه أسرة قلاوون مصر والشام عصر الازدهار في عهد حكم دولة المماليك بعد أن انتهت مرحلة التأسيس للدولة التي تمت على يد الظاهر بيبرس، وبعد أن أثبت سلاطين المماليك مقدرتهم على حكم البلاد وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التي هددت مصر والشام من جانب المغول والصليبيين. وليس هناك من شك في أن الفضل في استمرار هذا البيت في حكم البلاد يرجع إلى شخص السلطان المنصور قلاوون نفسه الذي استطاع أن يرسى هيبة بيته في النفوس وإحاطة هذا البيت وتوحيجه بالمجد والعظمة وجعله رمزاً للقوة والتقدم والاستقرار في الداخل، والأمن والأمان في الخارج.

وكان السلطان قلاوون قد أعلن ابنه الأكبر علاء الدين سلطاناً في حياته بموافقة الأمراء، وجعل ولاية العهد، من بعده لابنه الثاني خليل، لكن علاء الدين توفي في حياة أبيه سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م، فانتقلت السلطنة بالتالي إلى خليل عقب وفاة أبيه دون أن ينازعه فيها أحد، لا سيما أن الموقف في البلاد آنذاك كان يتطلب تولى سلطان جديد عرش السلطنة بأسرع ما يمكن ليقود الحملة التي كان قلاوون قد أعدها قبل وفاته لاستخلاص عكا من يد الصليبيين. وقد أقسم الأمراء يمين الطاعة للسلطان خليل الذي لقب بالأشرف وذلك سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، وبدأ

السلطان الأشرف خليل، بعد توليه عرش السلطنة الاستعداد للخروج بهذه الحملة.



السلطان الأشرف خليل بن قلاوون:

وبعد أن تخلص الأشرف خليل من العقبات المعتادة آنذاك التي تقابل كل سلطان مملوكى فى بداية حكمه من ثورات داخلية أو تطلعات للحكم من جانب سائر الأمراء المماليك المنافسين، توجه على رأس جيشه قاصدا تحرير عكا من يد الصليبيين. وعندما تيقن قادة الصليبيين من خلوص أمر الحكم للسلطان خليل، أرسلوا إليه سفارة من عندهم يسألونه العفو عنهم وعدم محاربتهم لكن لسلطان أصر على خطته، وسار بجيوشه المصرية والشامية متجهاً إلى عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، وبدأ بحصار المدينة ثم والى رميها بالمنجنيق رميا متواصلا، وكان السلطان قد نصب عليها ٩٢ منجنيقا تتناوب الرمي عليها.

وقد بذل الصليبيون جهداً مستميتاً فى الدفاع عن عكا، آخر قلاعهم ببلاد الشام دون جدوى. ونجح رمى المنجنيق فى نقب سور المدينة فاقتحمت جيوش المسلمين المدينة سنة ٦٩٠هـ / ١٨ مايو ١٢٩١م، وقُتل من قتل من أهل المدينة وأُسر من أُسر وفر من استطاع الفرار من الصليبيين فى السفن إلى عرض البحر، وغرقت سفن كثيرة من السفن التى فروا إليها بسبب زيادة تحميلها.

وبعد سقوط عكا، سارت القوات الإسلامية فى الأشهر التالية للفتح لإجلاء القوات الصليبية من بقايا مدن الساحل السورى التى كانت لا تزال فى أيديهم؛ فاستولت هذه القوات على مدن صور وصيدا وحيفا، وبذلك قطع دابرهم عن الشام ودالت دولتهم فيه وأزيل الدنس الصليبي من أرضه.

ومع أن القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، قد انتهى بتصفية الوجود الصليبي الاستعماري نهائياً من بلاد الشام إلا أن القرون التالية لهذا القرن شهدت رد فعل صليبي عنيف باستخدام سلاح آخر غير أسلحة القتال المعهودة، وهو سلاح الحرب الاقتصادية ضد العالم الإسلامى، واستخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية ومنع الاتجار مع بلاد هذا العالم، وحرمانه من قوته الاقتصادية التى هى سبب قوته العسكرية وقد خُيل لقادة الصليبيين أن حرمان مصر من ثرائها الاقتصادى سوف يؤدى حتماً إلى ضعفها العسكرى، وبالتالي يؤدى إلى هزيمتها قتالياً، وبذلك يتيسر لهم عودة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام واستعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

غير أنه لم يكتب لهذه الدعوة النجاح فى العصر المملوكى، ذلك لغلبة المصالح الخاصة عند حكام الدول الأوربية على الوازع الدينى. فلقد رفضت المدن الإيطالية التجارية وهى مدن جنوة



وبيزا وأمالفي والبندقية، هذه الدعوة لأن هذه المدن كانت تستفيد استفادة عظيمة من المشاركة في تجارة الشرق العالمية التي كان المسلمون يحتكرون طريقها آنذاك. وقد نجحت الدولة المملوكية في إفشال الدعوة لهذه المقاطعة الاقتصادية التي دعى إليها بابا روما ورجال الكنيسة الكاثوليكية، وذلك بتقديمها التسهيلات والامتيازات لتجار أوروبا الوافدين على بلادهم مؤكدين ذلك في المعاهدات والاتفاقات التجارية التي عقدها مع دولهم وحكوماتهم، كذلك بالمعاملة الطيبة التي كانت تعامل بها التجار الأجانب أثناء إقامتهم أو مرورهم بالبلاد الإسلامية.

هذا ولم تتوقف حروب السلطان الأشرف خليل على الجبهة الصليبية، ولكنها شملت جبهة المغول أيضا وقد قام هذا السلطان سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م بالإغارة على بلاد المغول وحاصر قلعة الروم، معقل نشاطهم، واستولى عليها، وكان ذلك في عهد غازان الذي حكم بلاد المغول بعد موت سابقه أرجون.

على أن هذه الانتصارات الكبرى التي أحرزها السلطان الأشرف خليل على الصليبيين وعلى المغول لم تشفع له عند أعدائه الحاقدين عليه، وقد دبر هؤلاء كيفية الخلاص منه. وقد كان من ضمن هؤلاء المدبرين لمقتله نفر من أمراء المماليك كانوا يرون أن انتصارات خليل أعطته تماديا في التكبر والتعظم عليهم.

وقد تزعم حركة التآمر هذه الأمير «بدر الدين بيدرا» نائب السلطنة، الذي ساءت العلاقة بينه وبين السلطان بشكل خطير. ومن كبار الأمراء الذين شاركوا في مؤامرة الاغتيال: حسام الدين لاجين، وشمس الدين قراسنقر، وسيف الدين بهادر. وقد انتهز هؤلاء الأمراء التآمر فرصة خروج السلطان للصيد سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م فتبعوه وأجهزوا عليه بسيوفهم عندما تأكدوا من ابتعاده عن حرسه عند بلدة تروجه (بمحافظة البحيرة). وهكذا كانت نهاية حياة هذا البطل العظيم الذي قطع دابر الصليبيين من بلاد الشام وطهر أرضها من رجس دنسهم.

وكانت مدة مملكة الأشرف خليل على مصر ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام، وكان قد جلس على تخت الملك في صبيحة دفن والده يوم الاثنين الثامن ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، وقُتل يوم السبت ١٢ المحرم سنة ٦٩٣هـ. وقد قال عنه المؤرخ النويري في تاريخه: «كان ملكاً مهيباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً بالمال». وقال عنه الذهبي في تاريخه: «كان بطلاً شجاعاً مقداماً عالى الهمة يملأ العين ويرجف القلب وكان إلى جوده وبذله الأموال في أغراضه المنتهى،

وكان قوى البطش رابط الجأش تخافه الملوك فى أمصارها والوحوش الفنارية فى آجامها، ولعل الله عز وجل قد عفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده ونكايته فى الكفار».



سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر (٦٩٣هـ/

١٢٩٣م):

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م بقلعة الجبل، وجلس على عرش السلطنة بعد قتل أخيه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، يوم الإثنين رابع عشر المحرم من سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م، باتفاق أمراء المماليك البحرية على سلطنته عوضاً عن أخيه، وهو السلطان التاسع من سلاطين المماليك الذين حكموا مصر والشام.

ولما استقر فى السلطنة رتب الأمراء الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائباً للسلطنة بدلاً من بدر الدين بيدرا الذى قُتل، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً ومدبراً للمملكة وأتابك العسكر، ثم قبضوا على جماعة من قتلة الأشرف خليل فى العشرين من صفر.

ولقد كان السلطان الملك الناصر محمد طفلاً صغيراً، لم يتجاوز التسع سنوات من العمر حين ولى السلطنة، وقد اختاره أمراء المماليك سلطاناً مؤقتاً حين ظهور شخصية قوية من بينهم يستطيع الاستحواذ على هذا الطفل الصغير ثم عزله وتولى الحكم مكانه.

وبالفعل قضى

الناصر محمد سنة واحدة

فى الحكم كان محجوراً

عليه فى القلعة من قبل

الأميرين علم الدين سنجر

الشجاعى وكتبغا المنصورى. وقد

نجح كتبغا فى الانفراد بالوصاية

على السلطان (الطفل) بعد أن

تخلص من زميله الشجاعى

بالاغتيال.



طشت نحاس مكنت بالفضة للسلطان الناصر محمد



وقد قام كتبغا، بعد قتل الشجاعى، بعزل الناصر محمد عن السلطنة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، بحجة صغر سنه وعدم استطاعته حكم البلاد، وتولى كتبغا السلطنة وتلقب بالملك العادل.

ولم يبق العادل كتبغا فى الحكم سوى سنتين ونجح الأمير حسام الدين لاجين فى خلعه وتولى السلطنة مكانه سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، وتلقب بالسلطان المنصور. غير أن لاجين لم يبق فى الحكم أيضاً سوى سنتين، إذ سرعان ما حنق عليه الأمراء ونقموا ودبروا قتله وهو جالس فى القلعة مشغولاً بلعب الشطرنج سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م. واضطر أمراء المماليك إلى إحضار الناصر محمد من منفاه فى الكرك ليتولى السلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨هـ، وليبق سلطاناً على البلاد مرة أخرى لمدة عشر سنوات (٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م).

سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ):

جلس الملك الناصر محمد على عرش السلطنة فى هذه المرة الثانية وعمره يومئذ نحو أربع عشرة سنة. وخلع السلطان على الأمير سيف الدين سلار بناية السلطنة وعلى الأمير حسام الدين لاجين بالأستادارية، واستمر الأمير آقوش الأفرم الصغير بناية دمشق. واستقرت الأمور للسلطان وكتبت البشائر بذلك إلى الأقطار وسر الناس بعودته إلى الملك سروراً زائداً بسائر البلاد.

وكان من أهم ما وقع من أحداث فى دولة المماليك فى تلك الأيام هو تجدد هجمات مغول فارس على بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م، وتوغل قوات مليكهم «غازان» فى تلك البلاد وإيقاع الهزيمة بالقوات المملوكية هناك عند «مجمع المروج»، بين حمص وحماة ودخول غازان دمشق والإفساد فيها، وبقاؤه هنالك لمدة ثم عودته إلى بلاده بعد أن ترك نائباً عنه فى دمشق.



قدح زجاجى مطعم بالذهب والفضة

سنة ١٣٠٠م



ولم تقف قوات الناصر محمد مكتوفة الأيدي إزاء هذا الغزو المغولي المخرب، فخرج السلطان بنفسه على رأس جيش كبير قاصدا الشام في العام التالي، ودخل دمشق وما أن علم غازان بذلك التحرك حتى عاد من بلاده إلى الشام لاستعادة دمشق. ودارت معركة عنيفة حاسمة بين قوات غازان المغولية وقوات المسلمين عند منطقة مرج «برج الصفر»، قرب دمشق، هُزمت فيها القوات المغولية هزيمة كبيرة منكرة لا تقل في حجمها ونتائجها وعدد قتلاها وأسراها عن هزيمتهم في عين جالوت.

ولما بلغ غازان خبر هزيمة جيوشه اغتم غما شديدا وخرج من أنفه دم كثير واحتجب عن حواشيه، حتى شارف على الموت ومات كمدا بمدينة الرى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٢م، وتولى الملك بعده أخوه محمد بن أبغا بن هولاكو.

هذا ولم يستطع السلطان الناصر محمد، وهو لا يزال شابا، التصدى لمؤامرات كبار أمراء المماليك الطامعين في الحكم والسلطنة؛ لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية سلطنة شكلية، وكان حكم البلاد في الواقع بيد كبار أمراء المماليك سلار وبيبرس الجاشنكير اللذين ضيقا على السلطان الخناق، وحالا بينه وبين ممارسة الحكم الفعلى للبلاد «وقد ضاق صدره وصار في غاية الحصر من تحكم بيبرس الجاشنكير وسلار عليه وعدم تصرفه في الدولة في كل ما يريد، حتى أنه لا يصل إلى ما تشتهي نفسه من المآكل لقلة المرتب له» فلولا ما كان يحصل له من أملاكه وأوقاف أبيه لما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه، وطال الأمر عليه سنين فأخذ في عمل مصلحة نفسه وأظهر أنه يريد الحج بعياله، وحدث بيبرس وسلار في ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه وأعجب البرحية خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم وشرعوا في تجهيزه».

وركب السلطان في الخامس والعشرين من شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحج ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء، وخرج العامة حوله وهم يتباكون ويتأسفون على فراقه ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج، وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك. ولكنه ما أن وصل إلى الكرك سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م حتى استقر بها وأرسل كتاباً إلى أمراء المماليك بمصر يخبرهم بما أقدم وصمم عليه وهو التنازل عن السلطنة والاستقرار في الكرك. وعلى أثر ذلك كان على أمراء المماليك أن يختاروا بدله سلطانا على البلاد، فبايع الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير بالسلطنة بعد أن اعتذر سلار عن قبولها.



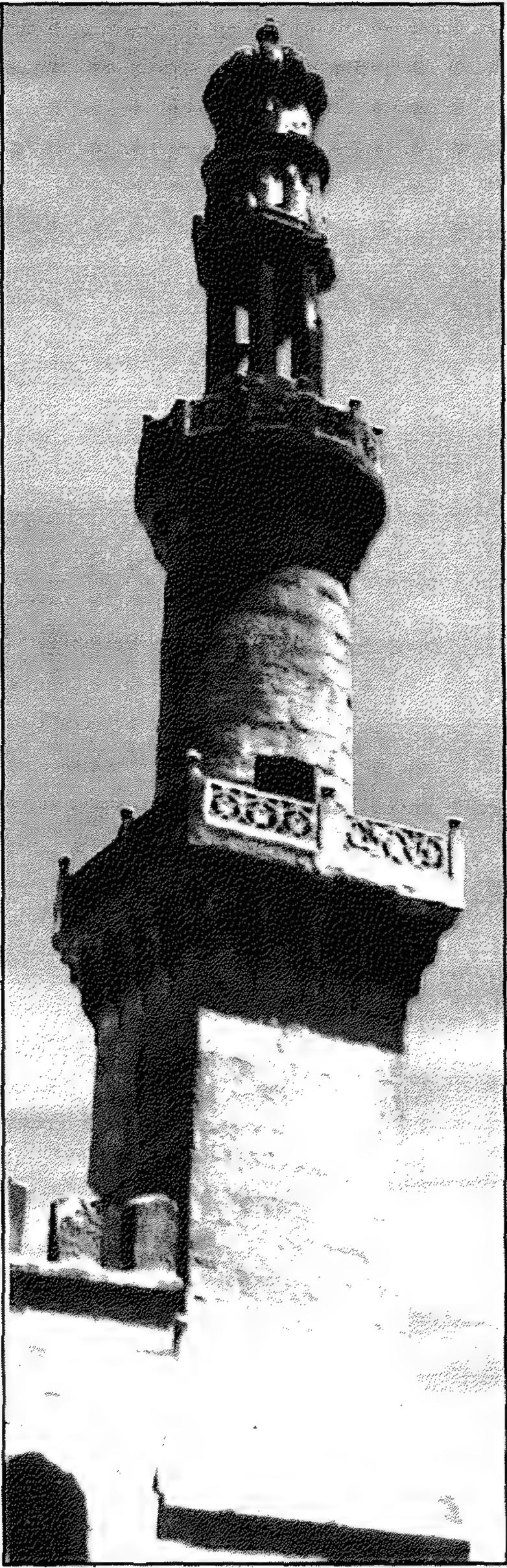
سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠م):

لم تستمر سلطنة بيبرس الجاشنكير إلا لعام واحد تقريباً؛ ذلك لكرامية الناس له وحبهم وتعلقهم بسلطانهم الناصر محمد، ولتنظيم الناصر محمد لصفوفه وهو في الكرك لاسترداد سلطانه المفقود. كذلك بسبب انفضاض كثير من أمراء المماليك عن بيبرس وهروبهم إلى الناصر محمد. ولما أعد الناصر للأمر عدته عاد إلى مصر وحوله رجاله وأنصاره، ولم يجد الجاشنكير أمامه بداً إلا الفرار إلى أطيح ومنها إلى برقة بليبيا، ولكن رجال الناصر قبضوا عليه وقام السلطان بتأنيبه حين مثل بين يديه وخنقه فمات ودُفن خلف قلعة الجبل ليلة الجمعة ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، وكانت مدة سلطنته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً على حسب رواية المؤرخ ابن تغرى بردى.

ولقد خرج الملك الناصر محمد يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان سنة ٧٠٩ للهجرة، وهي الساعة التي خلع بيبرس نفسه فيها من ملك مصر، من دمشق يريد الديار المصرية وصحبه نواب البلاد الشامية جميعهم والعساكر الشامية وخواصه ومماليكه، ووصل إلى غزة وسار حتى نزل بركة الحجاج في آخر شهر رمضان وصلى صلاة العيد هناك وخرج الناس للقاءه واحتفوا به حتى وصوله إلى القلعة.

واسترد الملك الناصر السلطنة على مصر والشام للمرة الثالثة وهو يومئذ في الخامسة والعشرين من عمره، واستمر هذه المرة في السلطنة حتى وفاته سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م مدة ٣٢ عاماً. وكان في هذه المرة قد صلب عوده واشتد ونجح في دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الدائم الذي لم تعرفه بلاد مصر والشام في عهود من حكمها من سابقه.

ولقد أدى الاستقرار في البلاد إلى رخاء الحال وإصلاح مسار الاقتصاد وتقدم العلوم وازدهار الفنون، حتى أن المؤرخين يعتبرون عصر حكم الناصر محمد أزهى عصور الفن والمعمار في تاريخ مصر الإسلامية عامةً. ويشهد على ذلك مقدار ما خلفه هذا السلطان من مبان وقصور وعمائر ومساجد ومدارس وآثار قيمة مختلفة لا زالت قائمة تتحدى الزمن حتى الآن، ولا عجب أن وصف المقرئى المؤرخ الناصر بأنه كان محباً للعمارة وأن مصروف العمارة في كل يوم من أيامه بلغ سبعة آلاف درهم. ومن منشآته المشهورة المدرسة الناصرية، والمسجد الذى شيده بالقلعة، والخانقاه التى أقامها للصوفية فى بلدة سرياقوس. هذا إضافة للمنشآت التى قام بتجديدها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م.



مئذنة مسجد الناصر محمد

بشن حرب عليها، وانصرف الملك الناصر عن الحرب إلى إصلاح حال البلاد وزيادة عمرانها.

مشكاة مزخرفة بالمينا سنة ١٣٣٧ م

أما عن علاقة الناصر محمد بالمغول، فإن ملكهم غازان، حاكم مغول فارس قد خلفه بعد موته الملك أوجتايو، وقد بادر هذا الملك غداة توليه الحكم إلى مصالحة السلطان الناصر وطلب وده بإقامة العلاقات الطيبة بين دولته ودولة المماليك. ولكن أوجتايو لم يكن جاداً في عرضه لذلك لم تتوطد العلاقة بين الجانبين في عهده، بل توطدت في عهد خلفه ابنه (بوسعيد)، سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م، وقد قام بوسعيد بتوقيع معاهدة صلح مع الملك الناصر، واستمر هذا الصلح قائماً بين الطرفين طوال عهد الملك بوسعيد حتى وفاته سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م.

وبوفاة الملك بوسعيد دب الاضمحلال في دولة مغول فارس والعراق، فاضطربت أحوالها وانقسمت فيما بينها وسادها التمزق والاضمحلال ورغم هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها دولة مغول فارس فإن حكومة الملك الناصر محمد احترمت تعهداتها معها ولم تقم

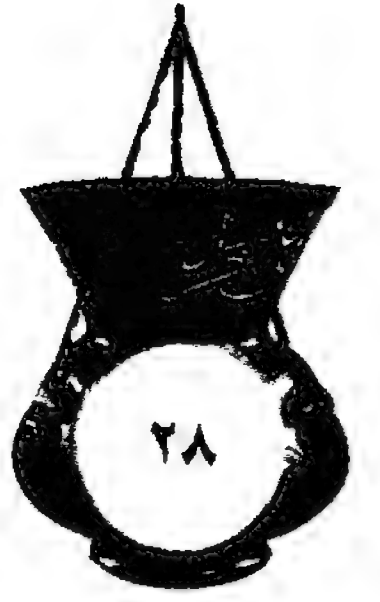




وفى ذات الوقت استمرت غلاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) استمراراً للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك، وقد تواصل تبادل الهدايا بين حكام الدولتين، كما استمرت المصاهرة بينهما، فكما تزوج السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من ابنة الملك بركة خان، تزوج السلطان الناصر محمد من أميرة مغولية تمت بصلة القرابة للملك المغولى أذربك خان. وقد استمرت الصداقة والعلاقة الطيبة قائمة بين الطرفين حتى لقت دولة مغول القبجاق نهايتها فى أواخر القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، على يد تيمورلنك، وتبعاً لذلك تلاشى أمر هذه الدولة تماماً من الوجود فى القرن التالى.

ولقد بدأ توعك السلطان ومرض مرض موته وفارق الدنيا فى أول ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م، وله من العمر ثمانية وخمسون عاماً ودفن بالقرافة عند باب النصر. وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان «أطول الملوك زماناً وأعظمهم مهابة وأغزرهم عقلاً وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيراً وأقواهم بطشاً وشجاعة وأحذقهم تنفيذاً. مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب وتقلب مع الدهر ألواناً، نشأ فى الملك والسعادة، وله فى ذلك الفخر والسيادة خليقاً للملك والسلطنة، فهو سلطان وابن سلطان وأخو سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه، والمُلك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليك ممالكه إلى أن تنقرض الدولة التركية، فهو أجلُّ ملوك الترك وأعظمها بلا مدافعة ومن ولى السلطنة من بعده بالنسبة إليه كأحد أعيان أمرائه».

ومن الصفات التى ذكرها عنه ابن تغرى بردى المؤرخ أنه كان متجماً يقتنى من كل شىء أحسنه، وأنه أكثر فى سلطنته من شراء المماليك والجوارى وبذل لهم الأموال، وأنه كان مشغولاً أيضاً بالخيول وبذل فى اقتنائها الكثير من الأموال وبخاصة خيول العرب من آل مهنا وآل فضل. وهو أول من اتخذ من ملوك مصر ديواناً للإسطبل السلطانى وعمل له ناظراً وشهوداً وكتاباً لضبط أسماء الخيل وأنسابها، وقد كان فى اسطبله ثلاثة آلاف فرس. وكان الملك الناصر شغوفاً بالصيد وعنى أيضاً بالأوز وأقام لها عدة من الخدام وجعل لها جانباً بحوش الغنم ولما مات ترك ثلاثين ألف رأس من الغنم سوى أتباعها وكان السلطان يرغب فى أصناف الجواهر فجلبتها إليه التجار من الأقطار، وشغف بالجوارى السرارى فحاز منهم كل بديعة الجمال، واستجد فى أيامه عمائر كثيرة منها حفر خليج الإسكندرية، وأنشأ الميدان تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ولعب فيه بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك، وكان الملك الناصر يحب لعب الكرة إلى الغاية.



ثم عمّر فوق الميدان هذا القصر الأبلق، ثم عمّر بالقلعة أيضاً دوراً
للأمراء الذين زوجهم لبناته وأجرى إليها المياه وعمل بها الحمامات، وعمّر
جامع القلعة وعمّر باب القرافة والخانقاه بناحية سرياقوس والقصور بها، وحفر
الخليج الناصري خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس كذلك عمّر أرض الطبالة
وجزيرة الفيل وناحية بولاق.

ومن الصفات الشخصية التي تميز بها السلطان الناصر محمد أنه كان عف
اللسان لم يعهد عنه أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدة غضبه ولا في
انبساطه، وأنه كان مفرط الذكاء وأنه كان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه من يشربه من الأمراء،
وكان في الجود والكرم غاية لا تدرك، وهب في يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهباً
وأعطى في يوم واحد لأربعة من مماليكه مائتي ألف دينار.

وقد خلف الناصر محمد من الأولاد الذكور ١٤ ابنًا ذكراً ومن البنات سبعة وتسطن من
ولده لصلبه ثمانية أبناء.

والواقع أن وفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م جاءت
إيداناً بإنهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بهما مصر والشام في عهد هذا السلطان.

وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد لبثوا في الحكم قرابة نصف القرن من الزمان بعد
وفاة الناصر نفسه، فإن ذلك يرجع إلى حب الناس لبيت قلاوون وللسمعة الطيبة والمكانة الراسخة
والشهرة الواسعة التي تركها الناصر محمد بن قلاوون في قلوب معاصريه.

سلطنة أبناء الناصر محمد بن قلاوون:

لقد تولى السلطنة ثمانية من أبناء الملك الناصر محمد بن قلاوون في العشرين سنة الأولى
التي أعقبت وفاته (٧٤١ - ٧٦٢هـ / ١٣٤١ - ١٣٦١م)، وفي العشرين سنة التالية تولى السلطنة
أربعة من أحفاده (٧٦٢ - ٧٨٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٨٢م) وكفانا أن نعرف أن بعض هؤلاء السلاطين
تولى السلطنة وعمره لم يزد عن العام الواحد، كما أن بعضهم لم يستمر في الحكم إلا لبضعة
أيام، مما كان له تأثيره على دولاب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد.

كذلك فإن صغر سن هؤلاء السلاطين وقلة خبرتهم بالحكم أطمعت كبار أمراء المماليك
فيهم وجعلتهم يتحكمون فيهم، وصاروا هم الحكام الفعليين للبلاد، من أمثال الأمير قوصون
الشيخى، والأمير يلبغا اليحياوى، والأمير أقسنقر السلاوى، والأمير أرجون العلائى وغيرهم ومن
هؤلاء الأمراء من ينتسب إلى الممالك البرجية الجراكسة، الأمر الذي يدل على ازدياد نفوذ تلك
الطائفة مما أدى في آخر الأمر إلى انتزاع الحكم من الممالك البحرية وتوليهم بداية من سنة
٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، السلطنة على يد أول سلاطينهم الأمير الظاهر سيف الدين برقوق.



ولتفصيل ذلك نقول أنه بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة ابنه السلطان الملك المنصور سيف الدين أبوبكر، بعهد من أبيه يوم الخميس الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م، وقام الأمير قوصون بتدبير الدولة ثم رأى خلعه بعد تسعة وخمسين يوما، يوم الأحد ٢٠ صفر سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م، وأقام مكانه أخاه السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن الناصر محمد، وهو فى الثامنة من عمره، وهو الابن الثانى من أبناء الملك الناصر محمد.

ولما تم الأمر لعلاء الدين كجك، جلس الأمراء المماليك وتشاوروا فيما بينهم فيمن يقيمونه نائباً للسلطان فرشح الأمير أيدغمش أمير آخور لهذا المنصب، لكن أيدغمش رفض ذلك الترشيح وآثر أن يظل فى وظيفته، فوقع اتفاق الأمراء بعد ذلك على الأمير قوصون الناصرى الذى قبل المنصب واستبد بالأمر دون السلطان وصار أمر السلطنة فى يده.

وكانت لقوصون المكانة عند سلاطين المماليك، فقد اتصل بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأحرز المكانة عنده ولم يكن قوصون مملوكاً أشتري من أسواق النخاسة لكنه كان وافداً على مصر من بلاد الترك صحبة (خوند) بنت أزيك خان التى جاءت لتُزف على الملك الناصر وقد قربته الناصر إليه حتى صار ساقيه وأعظم مماليكه، وتساوى فى المكانة مع بكتمر الساقى وكان من كبار المقربين للسلطان.

وقد ترقى قوصون فى عهد الناصر فى الوظائف العسكرية حتى جعله أمير مائة ومقدم ألف ومن زائد حظوة قوصون عند السلطان أن زوجّه من ابنته، وهى ثانى ابنة للسلطان يزوجهها لأحد مماليكه.

ثم تزايد أمر قوصون بعد وفاة الملك الناصر وتحكم فى أبنائه من بعده، فتنكرت قلوب أمراء المماليك له وتغيرت عليه فحاربوه وقبضوا عليه ونهبت العامة دوره وأمواله.

وقام أمراء المماليك بخلع السلطان علاء الدين كجك يوم الخميس أول شعبان من نفس العام (٧٤٢هـ)، فكانت بذلك مدة حكمه خمسة أشهر وعشرة أيام، وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة، وبعث يستدعى من الكرك السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، وكان مقيماً بقلعة الكرك منذ أيام أبيه وأما قوصون فقد قبض عليه وسُجن بالإسكندرية هو والطنبغا الصالحى نائب الشام وغيرهما، حتى حضر الملك الناصر أحمد من الكرك وجلس على كرسي الملك بقلعة الجبل واتفقت آراء الأمراء على قتل قوصون، فأرسل أمراء المماليك من قتله فى محبسه فى شهر شوال سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م.



وأما الأمير أيدغمش فإنه استمر مدبراً لأمر الديار المصرية، وقام بأمر الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، وهو لا يزال بالكرك، بجمع أمراء الممالك لخلع السلطان الأشرف علاء الدين كجك عن الملك، فتم لهم ذلك يوم الخميس أول شعبان من نفس العام، وكانت مدة سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام، ولم يكن له من السلطنة إلا مجرد الاسم، وقد توفي قتيلاً في فراشه في بلدة سرياقوس سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، وهو في الثانية عشرة من عمره.

السلطان الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون (٧٤٢-٧٤٣هـ / ١٣٤٢-١٣٤٣م)؛

هو السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن السلطان محمد بن قلاوون، تولى السلطنة بعد خلع أخيه علاء الدين كجك عنها، وكان قد بويع بالسلطنة قبل خلع أخيه كجك أيضاً وهو بقلعة الجبل وتسمى باسم الملك الناصر وأمه السيدة (بياض) وكانت من عتقاء الأمير بهادر الحسامي، رأس نوبة، وكانت تشتهر باسم (قونية) وقد بلغ السلطان محمد بن قلاوون خبر إجادتها للغناء فطلبها لتغني له وحظيت عنده وتزوجها فولدت له ابنه أحمد.

ويعد الملك الناصر أحمد الخامس عشر من سلاطين المماليك البحرية بمصر، وهو يأتي الثالث في الترتيب بين أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان تولى السلطان الناصر أحمد السلطنة على أثر قبض الأمير أيدغمش على قوصون الوصي على علاء الدين كجك.

وقد بعث أيدغمش وأمراء الممالك: جنكلي، وبيرس الأحمدي، وقماري إلى الناصر أحمد وهو بالكرك يخبرونه بما وقع ويستدعونه ليتولى السلطنة مكان أخيه.

وفي يوم الجمعة ثاني شعبان سنة ٧٤٢هـ / ١٧ يناير ١٣٤٢م، دُعي على منابر مصر والقاهرة للسلطان الملك الناصر أحمد.

وفي يوم الإثنين الخامس من نفس الشهر تجمعت العامة بسوق الخيل وهم يحملون رابات صفراء، وصاحوا على الأمير أيدغمش مطالبينه بإمدادهم بالزاد والركائب ليذهبوا إلى الكرك لإحضار الملك الناصر إلى مصر، فوافقهم على ذلك وزودهم بما يريدون، وسافروا من غدهم إلى الكرك لإحضار السلطان. وكان ذلك أول تعبير شعبي عن رغبة الشعب المصري في اختيار حاكمه وأكبر دليل على حب الشعب المصري لبيت قلاوون ولأبناء الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان السلطان أحمد قد اشترط على أمراء الممالك عودة إخوته من منفاهم بمدينة قوص حتى يتولى السلطنة؛ فوافقوه على ذلك، وتم إحضارهم من منفاهم بقوص يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م، وكانوا ستة من أولاد الناصر محمد بن قلاوون، واستقبلهم الأمراء والعامة استقبالا حافلاً وحين تأكد الناصر أحمد من عودة إخوته إلى القاهرة



قرر القدوم إلى مصر تاركًا الكرك، وأرسل ثلاثة من رجاله في الكرك إلى القاهرة يبشرون الناس بمقدمه، فخلع عليهم الأمراء المماليك عند قدومهم، وخرج العامة ينتظرون لقاء السلطان.

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان قدم قاصد السلطان إلى الأمير أيدغمش يفيد بمجيء السلطان ليلاً من باب القرافة وأمره له بأن يفتح باب السر حتى يعبر منه ففتح أيدغمش باب السر ومعه الطنبغا الماردانى، وباتا

فى انتظاره طيلة ليلة الخميس الثامن والعشرين من الشهر وأقبل السلطان فى الليل فى نحو عشرة رجال من أهل الكرك وهو متلثم. وأصبحوا وقد دقت الطبول بالقلعة وزينت الفسطاط والقاهرة بأجمل زينة. وفى صباح يوم الجمعة استدعى السلطان الأمير أيدغمش وأخبره بأنه لم يكن يتطلع إلى الملك، وأنه كان قانعاً بولاية الكرك، ولكنهم حين أرسلوا فى طلبه لم يتردد فى تحقيق مطلبهم. فأتنى أيدغمش على السلطان وقبل الأرض بين يديه، وأرسل على لسان السلطان إلى الأمراء الشاميين يعرفهم بقدوم السلطان إلى مصر ويطلب منهم المثول بين يديه.

وفى يوم الإثنين العاشر من شوال سنة ٧٤٢هـ / ٢٣ مارس ١٣٤٢م، ألبس السلطان أحمد شعار السلطنة وجلس على سرير الملك، وقد حضر جلوسه وتتويجه الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله، أبو العباس أحمد، وقضاة مصر الأربعة وقضاة دمشق الأربعة وجميع الأمراء والمقدمين. وعهد إليه الخليفة وقبل الأمراء الأرض بين يديه، بحسب العادة عند تتويج السلطان، ثم نهض السلطان على قدميه، فتقدم الأمراء وقبلوا يده واحداً بعد الآخر على حسب مراتبهم، وجاء الخليفة بعدهم وقضاة القضاة.

وفى يوم الخميس الثالث عشر من شوال، خلع السلطان على سائر الأمراء وأنعم على الأمير طشتمر الساقى بنيابة السلطنة بالديار المصرية فتوجه من ساعته وبأشر النيابة وجلس والحجاب قيام بين يديه والأمراء فى خدمته وأنعم السلطان على الأمير «طشتمر حمص أخضر» بعشرة آلاف دينار، وعلى الأمير قطلوبغا الفخرى بأربعة آلاف دينار ومائة ألف درهم فضة، ونزل فى موكب عظيم مع من حضر صحبته من أمراء البلاد الشامية.

ولم تطل مدة إقامة السلطان أحمد بالقاهرة، فقد اشتاق للعودة إلى الكرك موطنه القديم الذى نشأ وتربى وترعرع فيه، وكان أبوه قد أخرجته من مصر إلى الكرك وهو صغير دون أن يبلغ العاشرة من العمر، فتربى هناك وأحب أهل الكرك وأحبوه وصارت له وطناً وموطناً. وخرج السلطان عائداً إلى الكرك يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف نيابةً عنه الأمير آقسقر السلارى، نائب الغيبة.



وقد أدى غياب السلطان عن مصر وبقاؤه فى الكرك إلى اضطراب الأحوال بمصر وتحرك بعض أمراء المماليك للثورة والتمرد عليه فكتب أمراء السلطان الموالين له كتاباً إليه فى الخامس من المحرم سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م يخبرونه بتوقف الحياة فى مصر واضطراب الأحوال بها بسبب غيابه عنها، وقيام عربان الصعيد بالتمرد والعصيان وقطع الطريق على الناس، وسألوه سرعة الحضور لضبط الأمور وأرسلوا الكتاب مع الأمير طقتمر الصلاحى، الذى توجه بالفعل به إلى الكرك، وقابل السلطان وسلمه إياه، لكن ما خيب ظنهم هو عودة الصلاحى برفض السلطان العودة ومغادرة الكرك.

ولما جاء رد السلطان مخيباً آمال أمرائه وتأكدهم من عزمه البقاء فى الكرك دون الحضور إلى مصر اتفقوا على خلعه من السلطنة وإقامة أخيه إسماعيل مكانه، فخلع السلطان أحمد يوم الأربعاء ٢١ من المحرم فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً أقام خلالها بمصر قرابة شهرين وأقام الباقى منها بالكرك.

وقد ذكر المقرئى بأن السلطان أحمد لما خرج من مصر، متوجهاً إلى الكرك، حمل معه الخيول الحسان وأخذ جميع الطيور التى كانت فى الأحواش على اختلاف أنواعها والدواب وسيرها إلى الكرك وأيضاً حمل معه ستمائة ألف دينار ذهباً وصندوقاً مملوءاً بالجواهر التى جمعها أبوه مدة سلطنته، وقد كان الناصر محمد شغوفاً بجمع الجواهر، كما أسلفنا وأضاف المقرئى بأن «السلطان أحمد عند خروجه إلى الكرك، ما ترك بالقلعة مالا إلا أخذه، وأنه استمر بالكرك كأنه كان يعد نفسه للبقاء بها دون مصر لزائد حبه لها ولأهلها».

السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣ - ٧٤٦هـ / ١٣٤٣ - ١٣٤٥م)؛

هو السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون، تولى السلطنة بعد أخيه الملك الصالح فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم، وقام زوج أمه الأمير أرجون بتدبير المملكة مع مشاركة عدة من أمراء المماليك البحرية. ولما تولى الملك الصالح السلطنة أرسل كتاباً لأخيه الناصر أحمد يعلمه فيه بأن الأمراء أقاموه سلطاناً على البلاد مكانه لما علموا أنه ليس له رغبة فى ملك مصر وأنه فضل عليها بلاد الكرك والشوبك من بلاد الشام، كما أخبره فى كتابه بأنه يعترف له بولاية أمر هذه البلاد وطلب منه أيضاً فى كتابه هذا أن يعيد شارات الملك إليه وما كان أخذه من الخزائن وغيرها أثناء خروجه إلى الكرك، لكن الناصر أحمد لم يلتفت إلى طلب أخيه.



وما كان من السلطان إسماعيل إلا أن أرسل إلى أخيه قوة من جيشه تحاصره فى الكرك، وتوالى إرسال القوات المملوكية إلى الكرك حتى نجحت هذه القوات آخر الأمر من الظفر بالناصر أحمد بعد حصار لقلعة الكرك التى احتوى بها مدة سنتين وشهر وثلاثة أيام. وقد قبض على الناصر أحمد يوم الاثنين ٢٢ صفر سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، وقيد وحبس فى القلعة، وأرسل السلطان إسماعيل الأمير منجك اليوسفى الناصرى السلحدار إلى الكرك لإحضار الناصر أحمد حياً لكن الأمير منجك خالف أوامر السلطان وقام بقتل الناصر واحتراز رأسه والتوجه بها إلى القاهرة. ولما أحضرت الرأس ووُضعت أمام السلطان وعلم أنها رأس أخيه أصابه فزع شديد أعقبه مرض ولم يزل الفزع يعتاده والمرض يتملكه حتى توفى ليلة الخميس ١٤ ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، فكانت مدة سلطته ثلاثة سنين وشهرين وأحد عشر يوماً، وقام بعده فى الحكم أخوه السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان.

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان (٧٤٦ - ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦م):

هو السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون، وهو السابع عشر من سلاطين المماليك البحرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد، تولى السلطنة بعد موت أخيه وشقيقه الملك الصالح إسماعيل يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م.

وكان سبب سلطنته أنه لما اشتد بأخيه الصالح إسماعيل المرض دخل عليه زوج أمه ومدير مملكته الأمير أرجون العلانى فى عدة من الأمراء ليعهد بالسلطنة من بعده لأحد أخوته لكن الأمراء المماليك لم يحفلوا بذلك لأنهم كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على اختيار شعبان سلطاناً، وقاموا باستدعائه وبايعوه بالسلطنة وألبسوه لباسها وأركبوه شعار الملك، وخطب له على منابر مصر والقاهرة وكُتب بسلطنته إلى الأقطار، ثم أخذ السلطان الملك الكامل شعبان فى تدبير مملكته والنظر فى أمور الدولة.

وفى أيام حكم هذا السلطان كثر لعب الناس بالحمام حب السلطان اللعب به وشدة ولعه، وتزايد سوء الخلق وتسلبت عبيد الطواشية على الناس وصاروا كل يوم يتضاربون وتسفك بينهم دماء كثيرة، فاشتد قلق الناس من جراء ذلك.

وقد أورد عن هذا السلطان صاحب النجوم الزاهرة قوله: «وكان من أشد الملوك ظلمًا وعسفًا وفسقًا، وفى أيامه - مع قصر مدته - خربت بلاد كثيرة لشغفه باللهو وعكوفه على معاورة الخمر وسماع الأغاني. . . وكان سفاكًا للدماء سىء التدبير».

وقد ساءت العلاقة بين السلطان شعبان وكبار أمراء المماليك، وزادت الوحشة بينه وبينهم فركبوا عليه وركب لقتالهم فلم يثبت من معه، وعاد إلى القلعة منهزماً فتبعه الأمراء وخلعوه يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، وقاموا بالقبض عليه وسجنوه واستمر في السجن إلى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، وقتلوه وقت الظهر ودفنوه ليلة الخميس في القرافة الكبرى، وكانت مدة سلطته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوماً، وأقيم من بعده أخوه السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي.



السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بن محمد بن قلاوون (٧٤٧- ٧٤٩هـ / ١٣٤٦-

١٣٤٨م):

السلطان المظفر زين الدين حاجي، هو الثامن عشر من سلاطين المماليك البحرية، والسادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد عرف باسم أمير حاج، تولى السلطنة بعد خلع أخيه الكامل شعبان وقتله يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، وبعد أن أطلق سراحه من السجن الأمير أرجون شاه وأخاه حسين الذي كان محبوساً معه، ولما بويع حاجي بالسلطنة لقب بالملك المظفر وحلف له أمراء المماليك على الطاعة.

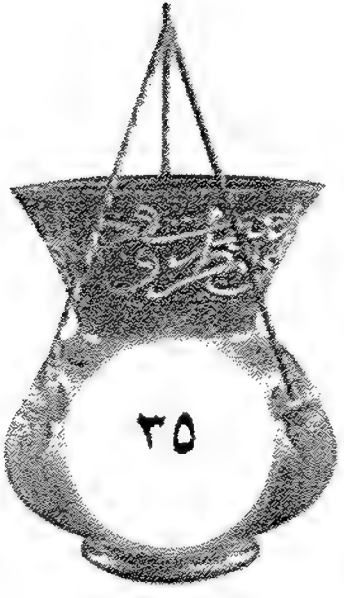
ولقد ساءت سيرة هذا السلطان، مثل سابقه وانهمك في اللعب بالحمام وبالعصى (التحطيب) مع أوباش الناس، كذلك انهمك باللعب بالرمح والكرة، وكان يشغل نهاره مع الغلمان والصيد في الدهيشة، وصار يتجاهر بما لا يليق به أن يفعله وقد تأمر هذا السلطان على قتل أخيه حسين، وأرصد له عدة خدام ليهجموا عليه عند إتاحة الفرصة ويقتلوه فبلغ حسينا ذلك فتمارض واحترس على نفسه فلم يجدوا منه غفلة.



مشكاة زجاجية

مطلية بالمينا سنة

١٣٤٩



واتفق أمراء المماليك على عزل السلطان، واتفقوا على مكاتبة نائب الشام الأمير أرجون شاه بمفاسد السلطان وأن يأخذوا رأيهم فيمن يقيموه سلطاناً، فأصبحوا وقد اجتمع أمراء المماليك على إقامة حسين ابن الملك الناصر محمد عوضاً عن أخيه في السلطنة، ووقعت بينهم وبين حسين مراسلات إلا أنهم وقع اتفاقهم في النهاية على أخيه الأمير حسن ليكون سلطاناً.

وجرت الحرب بين الملك المظفر وأعدائه وبين أمراء المماليك ورجالهم، وخان المظفر رجاله وتركوه وانضموا إلى صف الأمراء، وبقي السلطان يقاتل في نحو عشرين فرساً وتكاثر الأمراء عليه وقلعوه من سرجه وضرب بالسيف فجرح وجهه وأصابه، ثم صاروا به على فرس غير فرسه محتفظين به إلى تربة أم سنقر الرومي تحت الجبل، وذبحوه من ساعته قبيل عصر يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ودُفن بتربة أمه، وكانت مدة المظفر زين الدين حاجي على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، وأقيم من بعده أخوه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون.

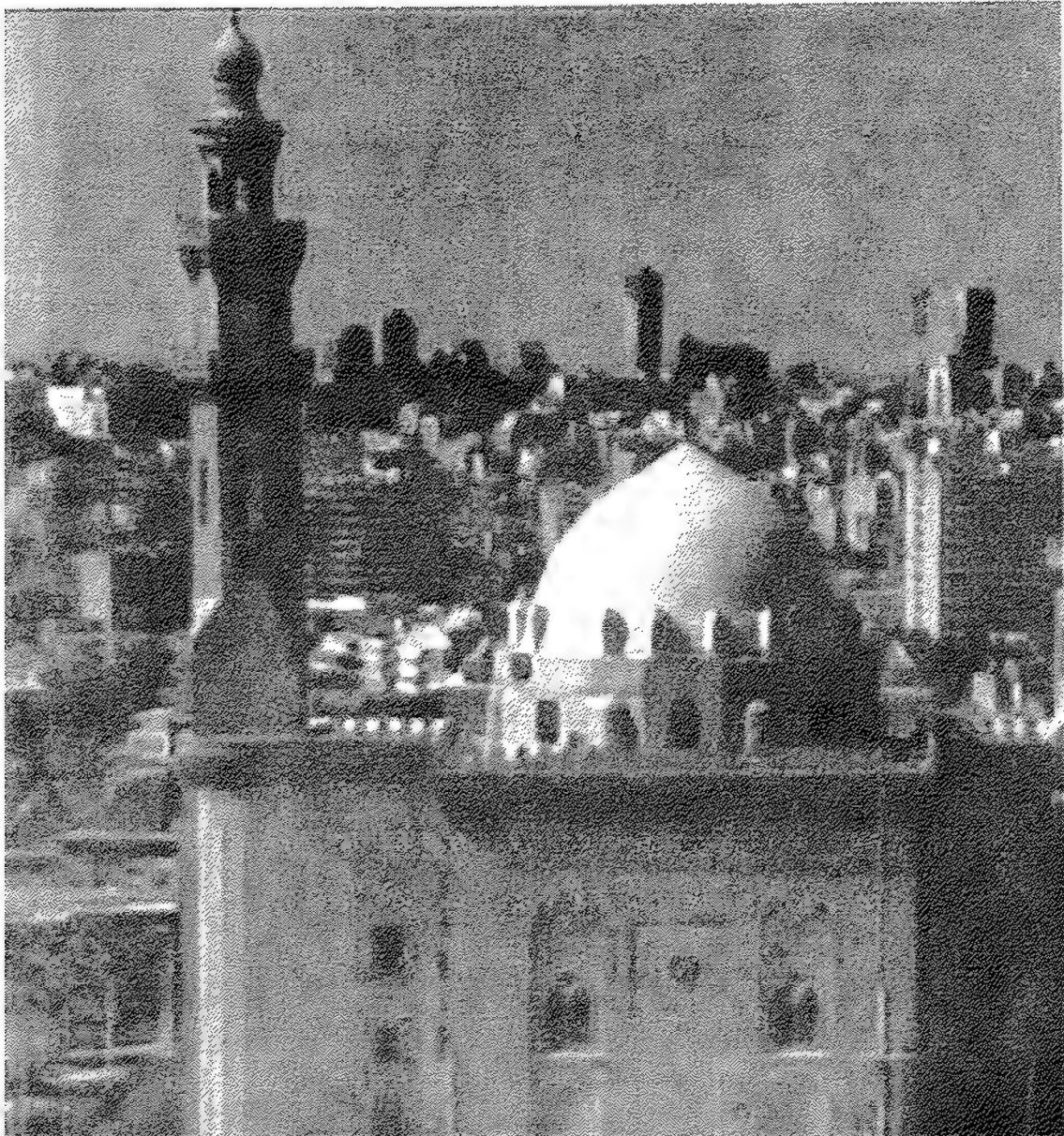
ولقد أورد ابن تغري بردي عن هذا السلطان قوله: «وكان المظفر أهوج سريع الحركة، عديم الإدارة، سيئ التدبير يؤثر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل والأعيان وكان فيه ظلم وجبروت وسفك للدماء، قُتل في مدة سلطنته مع قصرها، خلائق كثيرة من الأمراء وغيرهم، وكان مسرفاً على نفسه يحب لعب الحمام وغيره ويحسن فنونا كثيرة من الملاعب كالرمح والكرة والمصارعة وضرب السيف مع شجاعة وإقدام من غير تثبيت في أموره، وبالجملية فهو أسوأ سيرة من جميع إخوته ممن تسلطن قبل من أولاد الناصر محمد بن قلاوون».

السلطان الملك الناصر حسن (٧٤٨-٧٥٢هـ)

١٢٤٧-١٣٥١م) السلطنة الأولى:

هو السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد بن قلاوون، وهو السلطان التاسع عشر من سلاطين المماليك البحرية والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

مسجد السلطان حسن





وقد أجلسه الأمراء على كرسى السلطنة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، ولقب بالملك الناصر حسن، وكان عمره يوم تولى السلطنة أحد عشرة سنة ولم يكن له من الأمر شيء... وكان القائم بالأمر الفعلى هو الأمير شيخون العمرى، وكان أمر المشورة فى الدولة والتدبير لتسعة أمراء من أمراء المماليك البحرية.

وفى بداية حكم هذا السلطان وقع بمصر وباء الطاعون مما تسبب فى موت الكثير، حتى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر يومياً ما بين عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف نفس ثم اتصل الوباء ببلاد الشرق جميعها وبلاد العراق والشام وبلاد الفرنج والمغرب والأندلس، وازدادت أعداد الموتى بالقاهرة مع الأيام، ويقول فى ذلك أبو المحاسن ما نصه: «فما أهل ذو القعدة إلا والقاهرة خالية مقفرة، لا يوجد بشوارعها مار، بحيث أنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لاشتغال الناس بالموتى، وعلت الأتربة على الطرقات وتنكرت وجوه الناس وامتلات الأماكن بالصياح فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وترى فيه عدة أموات» واستمر هذا الوباء قائماً فى البلاد يقتل الناس ويبسدهم إلى أن أخذ فى التناقص فى أول المحرم من سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م.

وكانت مدة سلطنة السلطان حسن الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً منها ثلاث سنين مدة الحجر عليه، ومدة استبداده بالأمر نحو سبعة أشهر وأربعة عشر يوماً وكان القائم بأمر دولته أيام الحجر عليه الأمير شيخون العمرى رأس نوبة النواب، وإليه كان أمر خزانة الخالص. وكان أمر التصرف فى أموال الدولة للأمير منجك اليوسفى الوزير والاستدار ومقدم المماليك، وكان الحكم بين الناس وتدبير العسكر للأمير بيغا أرس.

«وكانت أيامه شديدة كثرت فيها المغارم وخربت عدة أملاك على النيل واحترقت مواضع كثيرة بالقاهرة ومصر وخرج العربان من الطاعة واشتد فسادهم، وكان فى أيامه الفناء العظيم من الطاعون الذى لم يعهد فى الإسلام مثله، وتوالى فى أيامه شراقى البلاد وإتلاف الجسور وثورة العربان ببلاد الصعيد وإفسادهم فاختلفت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خلافاً فاحشاً، كل ذلك من اضطراب المملكة واختلاف الكلمة وظلم الأمير منجك وعسفه»، ويؤكد المؤرخ ابن تغرى بردى ضعف حال السلطان حسن بقوله: «وأما الملك الناصر حسن وكان فى نفسه مفرط الذكاء،



عاقلاً وفيه رفق بالرعية، ضابطاً لما يدخل إليه وما يصرفه كل يوم، متديناً شهماً، لو وجد ناصراً أو معيناً لكان أجل الملوك، وأما سلطته الأولى لم يكن له فيها من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط، وذلك لصغر سنه وعدم وجود من يؤيده». ولقد ساءت علاقة السلطان حسن مع الأمراء المماليك فوافقوا على خلعهم من السلطنة وإحلال أخيه الملك الصالح بن محمد بن قلاوون مكانه.

ونجح أمراء المماليك في ذلك، ولما تولى صالح السلطنة نقل أخاه حسن إلى حيث كان يسكن قبل توليه السلطنة ورتب في خدمته جماعة وأجرى عليه من الرواتب ما يكفيه، وبذلك زالت سلطنة حسن الأولى يوم الإثنين ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م، فكانت مدة هذه السلطنة الأولى أربع سنين تقريباً.

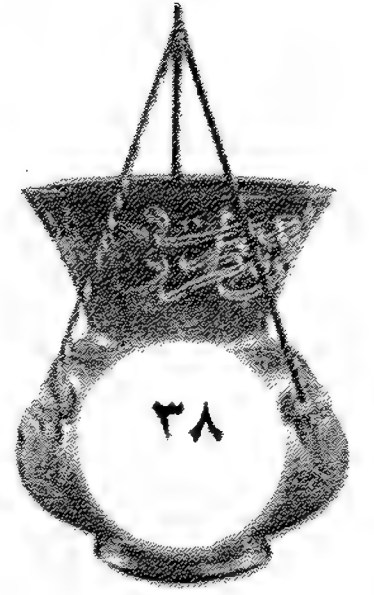
سلطنة الملك الصالح بن محمد بن قلاوون (٧٥٢ - ٧٥٥هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤م)؛

هو السلطان الملك الصالح بن محمد بن قلاوون، وهو العشرون في الترتيب فيمن تسلطن من المماليك البحرية على مصر والشام، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الذين تولوا السلطنة، وقد ذكر المؤرخ المقرئ من سيرته قوله: «أقيم سلطاناً بعد أخيه يوم الاثنين، فكثرت لهو، وخرج عن الحد في التبذل واللعب، فثار عليه الأميران شيخون وطاز، وقبضا عليه وسجناه بالقلعة يوم الاثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمئة، فكانت مدته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وحُبس هذا السلطان في بعض دور القلعة إلى أن توفي بها في ذي الحجة سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م وله من العمر سبع وعشرين سنة، ودفن بتربة عمه الملك الصالح على بن قلاوون بالقرب من المسجد النفيسى خارج القاهرة، وواصل المقرئ قوله عن هذا السلطان وصفاته:

«وكان ملكاً جليلاً عاقلاً، لم تشكر سيرته ولم تدم لأنه لم يكن له في سلطته إلا مجرد الاسم فقط لغلبة شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا غيرهم».

سلطنة الناصر حسن الثانية (٧٥٥ - ٧٦٢هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦٠م)؛

أعيد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون إلى السلطنة ليتولاها للمرة الثانية بعد خلع أخيه الملك الصالح بن محمد بن قلاوون، وبعد عودة هذا السلطان إلى السلطنة يقول



المؤرخ أبو المحاسن، صاحب النجوم الزاهرة: «ولما قبض على أصحاب الأمير طاز اتفق صرغتمش مع الأمير شيخون على خلع الملك الصالح من السلطنة وسلطنة الملك الناصر حسن ثانيًا وأبرموا ذلك حتى تم لهم، فقاموا ودخلوا إلى القلعة وأرسلوا طلبوا الملك الصالح، فلما توجه إليهم أخذ من الطريق وحبس في بيت من قلعة الجبل، وأرسلوا شهود عليه بأنه خلع نفسه من السلطنة، ثم طلبوا الملك الناصر حسن من محبسه بالقلعة وكلموه في عودته واشروطوا عليه شروطا قبلها، فأخذوه إلى موضع بالقلعة بأبهة الخليفة والقضاة وبايعوه ثانيًا بالسلطنة ولبسوه تشريف السلطنة وأبهة الملك، وركب فرس النوبة ومشى الأمراء بين يديه إلى الديوان، فنزل وجلس على تخت الملك وقبّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة وكان ذلك في يوم الإثنين ثانی شوال سنة خمس وخمسين وسبعمئة، ولم يُغَيَّر لقبه بل نُعت بالناصر كما كان أولاً على لقب أبيه ونودي باسمه في مصر والقاهرة ودقت البشائر وتم أمره».

واستمر السلطان الناصر حسن هذه المرة سلطاناً مدة ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وقد تمكن الحكم له خلال هذه المدة، إلا إنه وقع الخلاف بينه وبين الأمير يلغا العمرى، الذى عظم أمره فى الدولة وصار صاحب الكلمة فيها وثقلت وطأته على أستاذة الملك الناصر.

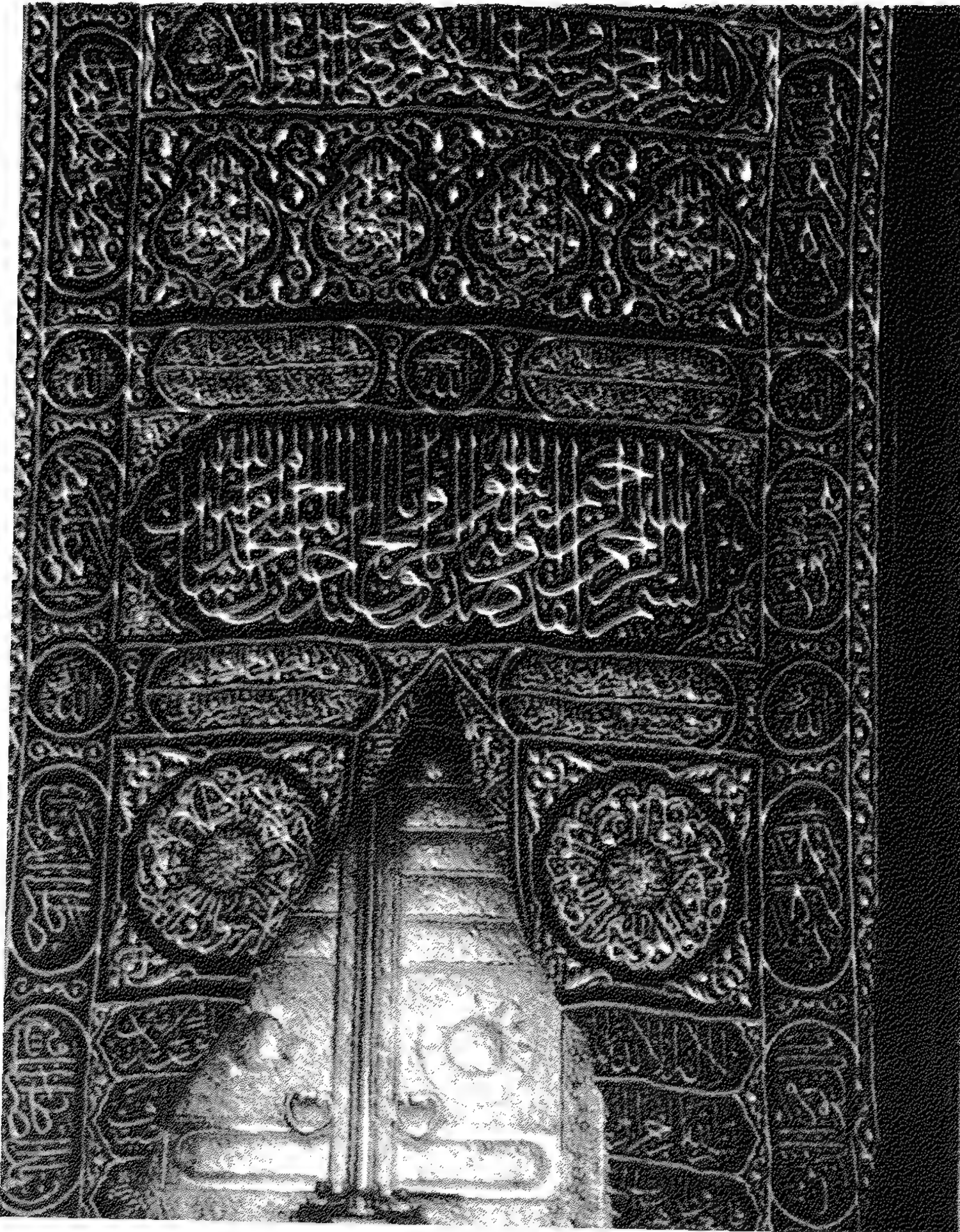
وكان كل من الأمراء يلغا وطبغا وتمان، هم أعظم أمراء السلطان وخاصكيته من مماليكه وما أن استهلت سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م حتى بلغ الملك الناصر حسن أن يلغا ينكر عليه إعطائه الإقطاعيات الهائلة للنساء، واختصاصه بالطواشيء وتحكمهم فى المملكة وأشياء من هذا القبيل. وصارت الخاصكية ينقلون للسلطان عن يلغا أموراً قبيحة فى حقه، فتكلم السلطان مع خواصه فى ضرورة الخلاص منه، وقد أحس يلغا بتغير السلطان عليه لذلك دبر بدوره أمر الخلاص من السلطان وأخذ كل منهما يتحين الفرصة للإيقاع بصاحبه. وعن نهاية السلطان الناصر حسن يذكر ابن تغرى بردى النص التالى: «واتفق بعد ذلك أن السلطان حسن خرج إلى الصيدين الجيزة بالقرب من الأهرام، وخرج معه غالبية أمرائه بما فيهم يلغا وغيره على العادة، فلما كان يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، أراد السلطان القبض على يلغا لما بلغه أنه يريد الركوب عليه هناك، فصبر السلطان حتى دخل الليل فركب ببعض خاصكيته من غير استعداد ولا اكتراث وسار يريد يكبس على يلغا بمخيمة، فأخبر بعض خاصكية السلطان بذلك إلى يلغا فاستعد بمماليكه وحاشيته لقتاله وطلب خشداشيته ووعدهم بالإمارات والإقطاعيات وخوفهم عاقبه أستاذهم الملك الناصر حسن حتى وافقه كثير منهم، كل ذلك والملك الناصر فى غفلة استخفافا



بمملوكه يلبغا حتى قارب السلطان خيمة يلبغا خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله فلم يثبت السلطان لقلّة ما كان معه من مماليكه وانكسر وهرب وعدى النيل وطلع إلى قلعة الجبل في الليل، في ليلة الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة اثنين وستين، وتبعه يلبغا ومن معه يريد القلعة».

وقد نجح يلبغا في القبض على السلطان وقتله، فكانت مدة سلطنته الثانية هذه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأقيم من بعده في السلطنة ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، أقامه يلبغا العمرى بعد أن استولى على القلعة والخزائن والسلاح والخيول والجمال وعلى جميع ما خلفه أستاذه الملك الناصر حسن.

وقد أطنب المؤرخون في ذكر سيرة الناصر حسن فقالوا عنه إنه كان سلطاناً شجاعاً مقدماً كريماً عاقلاً حازماً مدبراً سيوساً، ذا شهامة وصرامة وهيبة ووقار، عالى الهمة كثير البر والصدقات، ومما يدل على علو همته مدرسته التي أنشأها بالرميلة، تجاه قلعة الجبل في مدة يسيرة مع قصر مدته في السلطنة، ولا تزال هذه المدرسة قائمة إلى اليوم وتُعرف بجامع السلطان حسن وهي أفخم وأضخم مساجد مصر على الإطلاق. وكان السلطان حسن محباً للرعية حمدت سائر خصاله، كريماً باراً بإخوته وأهله، يسيل إلى فعل الخير



والصدقات وله مآثر بمكة المشرفة، واسمه مكتوب في الجانب الشرقي من الحرم الشريف، وعمل في زمنه باب الكعبة الذي هو بابها الآن، وقام بإرسال الكسوة للكعبة.



السلطان الملك المنصور أبو المعالي ناصر الدين محمد (٧٦٢ - ٧٦٤هـ /

١٣٦٠ - ١٣٦٢م)؛

تولى السلطنة بعد الناصر حسن ابن أخيه الملك المنصور أبو المعالي ناصر الدين محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، وهو الحادى والعشرون من سلاطين المماليك البحرية، تولى الحكم صبيحة القبض على عمه وقتله يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، وكان عمره يومئذ ١٤ سنة، ولقب بالملك المنصور وكان مدبر أمر مملكته والقائم بالأمر الأمير يلغا العمرى، وسرعان ما أظهر الوزير يلغا عداوته للسلطان وطمعه في عزله وإحلال سلطان آخر مكانه وقد أشاع يلغا عن السلطان قيامه بأمر شنيعة نفرت قلوب الأمراء منه مما جعلهم يوافقونه على خلعه من السلطنة، فقام يلغا بالفعل بخلعه وسجنه بالقلعة يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م، وأقام مكانه ابن عمه الملك الأشرف شعبان ابن حسين وكانت مدة سلطنة الملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة سوى مجرد الاسم والأمر كله والتصرف في سائر أمور المملكة بيد الوزير الأتابك يلغا، وقد استمر الملك المنصور محبوساً بالدور السلطانية من القلعة إلى أن مات بها في ليلة التاسع من المحرم سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م.

السلطان الملك الأشرف زين الدين شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٢ - ١٣٧٦م)؛

هو السلطان الملك الأشرف زين الدين بن حسين بن محمد قلاوون تولى السلطنة بعد الملك المنصور أبو المعالي، وهو السلطان الثانى والعشرون من سلاطين المماليك البحرية، تولى يوم الثلاثاء ١٥ شعبان، وعمره عشر سنين، ولم يل من بنى قلاوون من لم يتسلطن أبوه سواه، فأقام تحت حجر ووصاية الوزير يلغا حتى قتل يلغا بعد أربع سنين من ولايته ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م، فأخذ السلطان شعبان يستبد بالأمر وينفرد بتدبير ملكه إلى أن تخلص منه أمراء المماليك بالقتل يوم الثلاثاء، سادس ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، وأقيم ابنه مكانه في السلطنة، فكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً.

ولم تقع في عهد هذا السلطان أحداث مهمة سوى عودة نشاط الصليبيين وعودة هجومهم على البلاد الإسلامية بعد توقف دام ٧٧ عاماً، أى منذ الاستيلاء على عكا من الصليبيين سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، وطرد آخر بقايا لهم في بلاد الشام.



وقد انتهز الصليبيون اضطراب أحوال بلاد مصر والشام فى ظل حكم أبناء وأحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الضعاف ووجدوها فرصة مناسبة لهم لتحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه فى عهد حكم ممالك البحرية الأول الأقوياء الأشداء .

وفى ذلك الدور الجديد من أدوار الحرب الصليبية ضد المسلمين، اتخذ

ملوك جزيرة قبرص من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن القيام بغارات جوية من فوق أرض هذه الجزيرة على بعض الموانئ المملوكية الإسلامية، وقد ساعد ملوك قبرص فى تنفيذ هذه السياسة لجوء كثير من شتات الصليبيين من الشام إلى جزيرتهم فى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، استعانوا بهم فى حربهم ضد المسلمين والانتقام مما سبق أن حل بالصليبيين الأول فى بلاد الشام.

ولقد فكر ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان عند اعتلائه عرش بلاده سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، فى القيام بحملة صليبية كبرى ضد بلاد المسلمين.

ونجح هذا الملك فى سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م فى تجميع قواته فى جزيرة رودس ومهاجمة ثغر الإسكندرية، ونزل الصليبيون على شاطئ الإسكندرية صباح يوم الجمعة سنة ٧٦٧هـ، ونجحوا فى الاستيلاء عليها واستباحتها مدة ستة أيام ونهبها وتدمير مرافقها وما أن وصل الخبر لمتولى الأمور فى مصر وهو الأمير يلبغا إلا وسار على رأس جيش كبير متوجهاً إلى الإسكندرية لتخليصها من يد الصليبيين وبمجرد أن أحس الملك القبرصى بهذا التحرك المصرى نحوه حتى سارع بالجلء بقواته عن الإسكندرية يوم الخميس السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥م، بعد أن حمل فى سفنه معه آلاف الأسرى من المسلمين والكثير من الأسلاب.

ولما وصل يلبغا بقواته إلى الإسكندرية وشاهد ما حل بالمدينة والثغر من خراب ودمار أمر بدفن جثث القتلى وترميم ما خربه الصليبيون، وقد نبهت هذه الغزوة الصليبية حكام الممالك فى مصر إلى ضرورة الاستعداد للدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية، كذلك جعلت هذه الحملة وما وقع بها من تقتيل وأسر وتخريب، حكام الممالك إلا يغفروا للصليبيين ما أصابوا به مدينة الإسكندرية وأهلها المسلمين فغرموا على الأخذ بالتأثر منهم فى أقرب ما يكون ولكن ذلك لم يتم



قرآن مذهب هندية
من السلطان
شعبان الأعنة

على يد دولة المماليك البحرية التي كانت قد ضعفت آنذاك وتلفظ أنفاسها الأخيرة، لكنه تم على يد ورثتهم حكام دولة المماليك اليرجية القوية التي حلت مكانها في حكم مصر والشام.

السلطان الملك المنصور علاء الدين علي (٧٧٨-٧٨٣هـ / ١٢٧٦-١٢٨١م):

ولقد تولى بعد مقتل السلطان شعبان ابنه السلطان الملك المنصور علاء الدين علي، وهو في سن السابعة من عمره، يوم السبت ثالث ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، وأبوه كان لا يزال حيا، وقد ظل هذا السلطان تحت وصاية أمراء المماليك البحرية، ولم يكن له حظ من السلطنة



سوى الاسم، وظل تحت الوصاية حتى وفاته وهو فى الثانية عشرة من عمره يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م، فكانت مدة سلطنته الاسمية خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً، وأقيم بعده أخوه السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى.

السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٢ - ٧٨٤هـ / ١٣٨١ -

١٣٨٢م):

وهو الملك الصالح زين الدين حاجى بن شعبان بن محمد بن قلاوون، وهو آخر سلاطين المماليك البحرية، أقيم سلطاناً بعد موت أخيه علاء الدين على فى يوم الإثنين رابع عشر شهر صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م، فقام بأمر الملك وتدير أمور الدولة الأمير الكبير سيف الدين برقوق، حتى قام بخلعه عن السلطنة يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، فكانت مدة سلطنته سنة وست وخمسين يوماً، وبه انقضت دولة المماليك البحرية وأولادهم، ومدة سلطنتهم مائة وست وثلاثون سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام، أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وآخرها يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وعدتهم أربعة وعشرون ذكراً ما بين رجل وصبى وامرأة واحدة، وأولهم امرأة وآخرهم صبى.

وهكذا نرى أنه قد ولى دولة سلاطين المماليك البحرية بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون اثنا عشر سلطاناً من أبنائه وأحفاده، ومما يدل على اضطراب عهد أولئك الوارثين أن المدة الكاملة لحكمهم لم تزيد عن ٤٢ سنة تقريباً وهى مدة قصيرة بالنسبة لهذا العدد الكبير من السلاطين.

ومن دلائل الاضطراب كذلك أن نصف هؤلاء السلاطين الاثنى عشر قد أقبل من السلطنة وأنه لم يمت منهم ميتة طبيعية إلا اثنان.

وقد كان سوء أحوال البلاد فى أواخر عهد حكم سلاطين المماليك البحرية يستدعى قيام عناصر جديدة غير عناصر البحرية يتولى أمر البلاد لإصلاح حالها، وقد جاء ذلك بالفعل على يد دماء جديدة بحكام المماليك الجراكسة الذين أقاموا دولتهم التى عرفت بدولة المماليك البرجية.



الفصل الثانی دولة سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة) (٧٨٤-٨٩٢هـ / ١٣٨٢-١٥١٦م)

خلفت دولة المماليك البحرية دولة المماليك البرجية (الجراكسة) التي أسسها السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق، وهو أمير مملوكى جركسى، خدم فى دولة أبناء الناصر محمد بن قلاوون، واستطاع بفضل طموحه وقوة شخصيته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ / ١٣٨٧م، وأصبح بذلك من أقوى أمراء المماليك فى عهد السلطان علاء الدين على.

وكان فى استطاعة برقوق أن يصبح سلطاناً عقب وفاة الطفل علاء الدين على ولكنه تمهل فى الأمر، حتى تنضج الكمثرى، لأنه كان هنالك معارضون لبرقوق من أمراء المماليك البحرية، فتظاهر برقوق، بسبب ذلك، بالزهد فى السلطنة، فجمع برقوق الخليفة والقضاة وكبار أمراء المماليك البحرية بقلعة الجبل وأعلن أمامهم جميعاً بأن المصلحة تتطلب إبقاء السلطنة فى بيت قلاوون، فاستدعى حاجى حفيد الناصر محمد وكان آنذاك صبيّاً لم يتجاوز العاشرة من عمره وأعلنه سلطاناً سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م.

وكان لحاجى هذا الاسم من السلطنة وكان الأمر كله بيد برقوق الذى حين وجد الفرصة مهيأة له ليكون سلطاناً على البلاد، انتحل العذر الذى سبق أن تزرع به الطامعون فى السلطنة من أمراء المماليك، وهو صغر سن السلطان القائم بالأمر وحاجة البلاد لرجل رشيد يضبط أمورها فى الداخل ويدفع عنها الخطر من الخارج.

لذلك عقد برقوق اجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، حضره الخليفة العباسى والقضاة والأمراء، ونهض كاتب السر القاضى بدر الدين، بتحريض من برقوق، ليعلن بأن الوقت قد ضاق وأن البلاد فى حاجة ماسة إقامة سلطان كبير تجتمع عليه كلمة الناس أجمعين فأجمع الحضور على خلع حاجى من السلطنة وإعلان برقوق سلطاناً على البلاد، وتلقيه بالملك الظاهر.

وهكذا بتولى برقوق الجركسى السلطنة ينتهى عهد حكم دولة المماليك البحرية ويبدأ حكم دولة المماليك البرجية الجركسية.



ولقد تألف سلاطين دولة المماليك البرجية من ٢٤ سلطاناً، كان الظاهر برقوق أولهم، وكان الأشرف طومان باي آخرهم، وهو الذي تم الفتح العثماني لمصر والشام في عهده. وقد جاء ترتيب هؤلاء السلاطين وسنى حكمهم كالتالى:

سلاطين المماليك البرجية (الجراسية)	تاريخ تولي هجرى	تاريخ تولي ميلادى
١- الظاهر سيف الدين برقوق	٧٨٤-٨٠١	١٣٨٢-١٣٩٨
٢- الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	٨٠١-٨٠٨	١٣٩٨-١٤٠٥
٣- المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨-٨١٥	١٤٠٥-١٤١٢
٤- العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس	٨١٥	١٤١٢
٥- المؤيد سيف الدين شيخ الحمودى	٨١٥-٨٢٤	١٤١٢-١٤٢٠
٦- المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ	٨٢٤	١٤٢٠
٧- الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤	١٤٢٠
٨- الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤-٨٢٥	١٤٢٠-١٤٢١
٩- الأشرف سيف الدين برسباى	٨٢٥-٨٤١	١٤٢١-١٤٣٧
١٠- العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى	٨٤١-٨٤٢	١٤٣٧-١٤٣٨
١١- الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢-٨٥٧	١٤٣٨-١٤٥٣
١٢- المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣
١٣- الأشرف سيف الدين إينال	٨٥٧-٨٦٥	١٤٥٣-١٤٦٠
١٤- المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	٨٦٥	١٤٦٠
١٥- الظاهر سيف الدين خشقدم	٨٦٥-٨٧٢	١٤٦٠-١٤٦٧
١٦- الظاهر سيف الدين بلباى	٨٧٢	١٤٦٧
١٧- الظاهر تقيباى	٨٧٢	١٤٦٧
١٨- الأشرف سيف الدين قايتباى	٨٧٢-٩٠١	١٤٦٨-١٤٩٦
١٩- الناصر محمد بن قايتباى	٩٠١-٩٠٤	١٤٩٦-١٤٩٨
٢٠- الظاهر قانصوه أمير آخور	٩٠٤-٩٠٥	١٤٩٨-١٤٩٩
٢١- الأشرف جانبلاط	٩٠٥-٩٠٦	١٤٩٩-١٥٠٠
٢٢- العادل سيف الدين طومان باى	٩٠٦	١٥٠٠
٢٣- الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٦-٩٢٢	١٥٠٠-١٥١٥
٢٤- الأشرف طومان باى	٩٢٢-٩٢٣	١٥١٥-١٥١٦

السلطان الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م):



يعتبر السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين المماليك البرجية، وقد تسمت دولة المماليك الثانية بالبرجية لأن السلطان المنصور قلاوون كان قد اشترى أعدادا كبيرة من المماليك الجراكسة من بلاد الروس من منطقة خوارزم وجورجيا كان سكنها عنصر الأتراك الجركسي، وأسكنهم في أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية. وكان عدد من اشتراهم قلاوون منهم ثلاثة آلاف وسبعمئة مملوك.

وكان برقوق أول حكام هذه الدولة وسلاطينها، وكان قد جلب من المنطقة الواقعة بين جورجيا وخوارزم بين بحر قزوين والبحر الأسود، وبيع ببلاد القرم، وجيء به إلى القاهرة فاشتراه الأمير المملوكي الكبير يلبغا الخاصكي وأعتقه وجعله من جملة ممالكه فعرف ببرقوق اليلبغاوي، واستطاع برقوق أن يقيم نفسه سلطاناً على البلاد سنة ٧٨٤ هـ. وأن يخلفه من بعده سلاطين الجراكسة الذين ظلوا على حكم مصر حتى الفتح العثماني لها.





وكان
أبرز مظاهر
هذه الدولة
الچركسية
الاضطرابات
والحروب

الداخلية بين الأمراء بعضهم
وبعض للوصول إلى كرسي
الحكم، وتلك الفتن والثورات
التي صاحبت هذا الصراع؛
لذلك نجد هذه الدولة تستبعد
مبدأ الوراثة في الحكم شأنها في
ذلك شأن دولة المماليك
البحرية، وصار الحكم فيها
للسلطان الأقوى، صاحب العدد
الأكبر من المماليك.

ولقد كان من مظاهر هذه
الدولة أيضا قصر مدة حكم
سلاطينها، إلا العدد القليل



جامع السلطان برقوق

منهم الذين حكموا لفترات طويلة مثل: برقوق وبرسباي، وجقمق وقايتباي والغوري.

وصارت مصر في عهد دولة المماليك البرجية إمبراطورية كبرى، وصارت القاهرة عاصمتها
قبلة العالم آنذاك وعاصمته. وتميز هذا العصر أيضا بالمعمار الهائل الفخم، ويشهد على ذلك
مجموعات الآثار الهائلة التي خلفها حكام هذه الدولة من مساجد ومدارس وقصور ووكالات
وخانات وخوانق وأسبلة ومستشفيات وغيرها، ويشهد على ازدهار الحضارة لمصر في عهدهم
تلك التحف الكثيرة والمتعددة التي تتزين بها متاحف العالم في الشرق والغرب.

وشهدت هذه الدولة المملوكية الموجة الثانية من هجمات المغول والتتار على الدولة
الإسلامية بقيادة زعيمهم تيمور لنك وتصدى سلاطين المماليك البرجية لها كما تصدى سلاطين
المماليك البحرية من قبل لهجمة المغول الأولى على العالم الإسلامي في عهد مليكهم جنكيز خان
والتي جاءت بقيادة قائده الكبير هولاكو.



كذلك تصدى هؤلاء المماليك الجراكسة للخطر العثماني الذي استهدف مصر والشام واستطاع إنهاء حكمهم فيهما، والقضاء على دولتهم. وعاصرت دولة المماليك البرجية الهجمة الصليبية على بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وإنهاء الحكم الإسلامي من بلاد الأندلس بعد أن دام فيها مدة ثمانية قرون. كما عاصرت هذه الدولة الحرب الاقتصادية الصليبية الشنعاء على بلاد المسلمين بعد أن توصل البرتغاليون، يقودهم العداء للمسلمين، إلى كشف طريق جديد للتجارة العالمية وللوصول إلى بلاد الهند والصين، وقيامهم بتعطيل الطريق التجاري القديم المعتاد بين البحرين المتوسط والأحمر، وذلك بقصد حرمان بلاد العالم الإسلامي، وبخاصة مصر زعيمة هذا العالم آنذاك، من عائد التجارة العالمية الذي هو سبب ثرائه الاقتصادي وأساس قوته العسكرية.

ولقد بدأ السلطان الظاهر برقوق حكمه بتثبيت قواعد سلطنته بمكافأة أعيان الدولة لا سيما أنصاره وأعوانه عند استقرار أمر السلطنة له سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، فخلع على الخليفة والقضاة الخلع السنية وأقرهم في مناصبهم، كما أقر الأمير البجاسي، وهو من كبار أعوانه، في وظيفة رأس نوبة مع إضافة الأتابكية إليه، وهو المنصب الذي شغله برقوق قبل سلطنته، كذلك أقر برقوق الأمير جهاركس الخليلي أمير آخور كبير في وظيفته، ورقى سودون الفخري، حاجب الحجاب إلى منصب نيابة السلطنة في مصر، ومنح إمرة مائة وتقدمة ألف ليونس النوروزي الدوادار، وعين القاضي أوحده الدين عبد الواحد الحنفى كاتباً للسر بمصر.

ولقد امتلأ عهد حكم برقوق بالمؤامرات والفتن التي نجح أصحابها في الإطاحة به وسجنه وعزله ثم عودته للحكم مرة ثانية. وكان أخشى ما يخشاه السلطان برقوق منذ أوائل سلطنته سطوة الأمير يلبغا الناصري، نائب حلب، لأنه يعلم أن يلبغا غير راض عن سلطنته في قرارة نفسه، وكان يلبغا قد قدم إلى مصر من حلب، أول المحرم سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م، مهتماً لبرقوق بالسلطنة وقد بعث برقوق أتابك العساكر وبعض الأمراء لاستقباله واحتفى به وأقره على ولايته حلب وأغدق عليه الهدايا، وبعد إقامته بعشرة أيام بالقاهرة أذن له السلطان بالسفر إلى مقر وظيفته وخلع عليه (خلعة السفر)، وهي خلعة لا تكون إلا للكبار من الأمراء يخلعها السلطان لهم عند مغادرتهم الحضرة السلطانية.

ولم يلبث أن استشعر برقوق بخطورة يلبغا، فأراد أن يتخذ خطوة إيجابية ليحول دون قيامه ضده، فاستقدمه إلى القاهرة وعزله عن نيابة حلب وسجنه بالإسكندرية وصادر أمواله ثم عفا عنه بعد ذلك سنة ٧٨٩هـ / ١٣٧٧م وأعادته إلى منصبه. وفي ذلك الوقت ثار ضد برقوق الأمير



منطاش، نائب ملطية، والتف حوله عدد كبير من التركمان. ورغم خطورة ثورة منطاش إلا أن السلطان لم يكن يخشاها بقدر خشيته من خروج يلبغا عليه، وكان يلبغا بعد أن أعاده السلطان إلى حلب، صمم على الثورة ضد السلطان، وقد حاول السلطان، هذه المرة، استدراجه إلى القاهرة والغدر به والتخلص نهائياً منه، إلا أن يلبغا تدارك مخطط السلطان فاعتذر عن الحضور إليه بحجة انشغاله بمواجهة ثورة نائب ملطية.

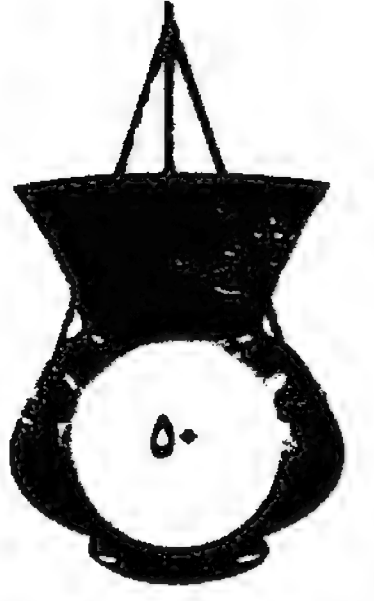
وبعد أن أعد يلبغا لأمر الثورة ضد السلطان عدته استولى على قلعة حلب وضم منطاش ورجاله إليه، وعظم أمره بدخول نواب الشام جميعهم تحت طاعته باستثناء نائب دمشق ونائب الكرك، وانضم إليه عربان الشام وعموم التركمان.

ولم يكن أمام برقوق سوى مواجهة هؤلاء الخارجين على حكمه فأرسل حملة من عنده إلى دمشق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م انتهت بالهزيمة وبفرار عدد كبير من رجاله إلى قوات الثوار التي دخلت دمشق واحتلت قلعتها.

وبعد أن استولى يلبغا على كل بلاد الشام توجه بجيشه إلى القاهرة، ونجح في الاستيلاء على القلعة بعد أن هرب برقوق منها متخفياً وأصبح يلبغا منذ سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م هو صاحب الأمر في السلطنة المملوكية. وأراد يلبغا أن يصير سلطاناً لكنه وجد معارضة في ذلك من ناحية بعض أمراء الشام وفي مقدمتهم منطاش، فاتفق الرأي أمام الخليفة المتوكل العباسي والقضاة والأعيان على إعادة السلطان حاجي إلى السلطنة بلقب جديد وهو المنصور بعد أن كان يلقب بالناصر في سلطنته الأولى، وتولى يلبغا أتابكية العساكر وقام على الأثر بحركة تطهير بين ممالك برقوق بالقاهرة.

وقبض على برقوق متخفياً في منزل خياط وجيء به إلى يلبغا، فأكرمه في أول الأمر ثم قام بحبسه في الكرك، وأوصى نائب الكرك بإطلاق سراح برقوق إذا وقعت فتنة بينه وبين منطاش نائب ملطية. وبالع نائب الكرك في إكرام برقوق حتى أنه كان يأكل معه في محبسه.

أما يلبغا، فاستبد بالأمور في البلاد وحجر على السلطان حاجي وأخذ لنفسه أجود الإقطاعات وأوفرها غلة ولم يعط حليفه منطاش إلا القليل؛ الأمر الذي أوغر صدره ضده فجمع قلة من ممالিকে واستولى على بعض الخيول من القلعة وأخذ يلبغا على غرة وانضم العوام إليه، ولما رأى يلبغا إدبار أمره هرب من القاهرة إلى سرياقوس حيث قبض عليه هناك وحُمل سجيناً إلى الإسكندرية، وأصبح منطاش صاحب الأمر في البلاد وتقرب من السلطان حاجي الذي عينه في



منصب الأتابكية، لكن منطاش أخفق في كسب ممالك برقوق الذين ساعدوه ضد عدوه يلغا لعدم وفائه لهم بعهدہ بإخراج أستاذهم برقوق من سجنه ومحاولته قتل نحو مائتين منهم دفعة واحدة.

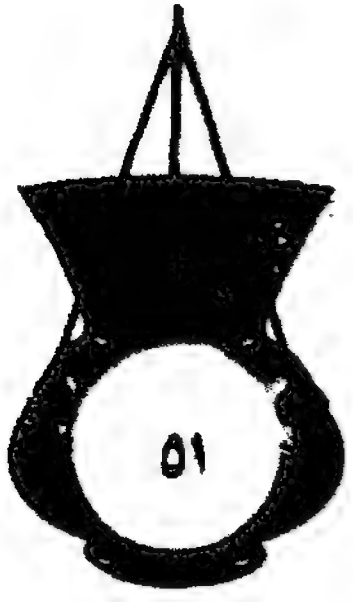
وفى تلك الظروف والأحوال المضطربة التي سادت البلاد بمصر والشام أفرج والى الكرك عن السلطان برقوق عملاً بوصية يلغا له، واستطاع برقوق بمساعدة العامة الخروج من سجنه والتوجه إلى دمشق وجمع أعوانه هناك، وتوجه برقوق، بمن انضم إليه من الرجال لمقاتلة قوات منطاش عند منطقة شقج، بظاهر دمشق وانتصر برقوق في هذه المعركة وهرب منطاش وتقدم برقوق عائداً إلى القاهرة وفي القلعة جددت البيعة لبرقوق، ثم أذن برقوق للسلطان حاجي بالإقامة في القاهرة حتى مات مسموماً على أيدي جواريه.

وهكذا نجح برقوق في استعادة سلطنته وحكم مدة السلطنة الثانية حتى وفاته (٧٩٢-٨٠١هـ / ١٣٩٠-١٤٠٠م) ورغم استقرار الأمور له إلا أن فترة هذه السلطنة الثانية قد امتلأت بالفتن الداخلية التي أخذت جل وقته وجهده في القضاء عليها، كذلك وقع في هذه المرحلة الهجوم الثاني للمغول على البلاد الإسلامية بقيادة قائدهم الجبار تيمورلنك (٧٣٦-٨٠٧هـ / ١٣٣٥-١٤٠٤م).

الهجوم الثاني للمغول على البلاد الإسلامية:

وتيمور لنك هو سليل أحد وزراء المغول ولد بإحدى قرى مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر، والتحق في أول أمره بخدمة حاكم سمرقند ثم نجح بعد ذلك في حكم سمرقند وضم بلاد خوارزم وهرات وسجستان إليها، ثم ضم بلاد فارس وأذربيجان وجورجيا. كما أنه استطاع أن ينقض على دولة مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ويضم بلادها إلى ملكه. وواصل هجماته على بلاد العالم الإسلامي فاستولى على العراق وعلى معظم بلاد الشام ومن بينها مدن الرها وملطية وقد صلب حملات تيمورلنك على البلاد التي هاجمها واستولى عليها الدمار والخراب والقتل والإبادة الأمر الذي أفزع الناس، وأصابهم بالذعر والهلع وجعلهم يهربون من أمامه لا يألون، خوفاً من الوقوع في قبضة يده ونهايتهم عليها.

ووصلت أخبار غارات تيمور إلى السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م، وعلم أن هذه القوات وصلت إلى مدينة الرها وخربتها وأنها تقدمت إلى ملطية الخاضعة للممالك، عندئذ أرسل



السلطان برقوق حملة قصدت حلب وديار بكر لتلتقى هناك بجزء من قوات تيمورلنك. وبالفعل نجحت هذه الحملة في هزيمة تلك القوات، وكان مرد هذا النصر إلى إنشغال تيمورلنك بحربه ضد مغول القبچاق في حوض نهر الفولجا، كذلك لانشغاله بفتوحه في الهند.

وبعد أن أنهى تيمورلنك حربه في تلك البلاد تفرغ لحرب مصر، فأرسل سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، رسالة إلى برقوق تحمل نفس التهديد الذي سبق أن

حملته رسالة هولاکو إلى السلطان قطز من قبل أيام حكم دولة المماليك البحرية. فرد عليه برقوق بنفس الجواب، الذي بعث به قطز وهو تحدى المغول والاستهانة بهم والاستعداد لحربهم ونزالهم. وقد ترجم برقوق القول بالفعل؛ فجهز جيشه في العام التالي وقاده بنفسه متوجهاً به إلى حلب لملاقاة جيش تيمورلنك هناك، غير أن برقوق اكتشف عودة تيمورلنك إلى بلاده بسبب بعض المشاكل التي عنت له هناك، فرجع برقوق بجيشه وتأجل اللقاء بينه وبين المغول آنذاك (وكفى الله المؤمنين القتال) وقد توفى برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م، تاركاً مهمة لقاء المغول من بعده لابنه السلطان فرج بن برقوق الذي تولى السلطنة من بعده.

وسبب موت برقوق إصابته بحمى شديدة الحرارة، وقد قام وهو على فراش الموت، يأخذ البيعة من بعده لأولاده: فرج ثم عبد العزيز ثم إبراهيم بحضور الخليفة المتوكل على الله وقضاة القضاة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة، ثم كُتبت وصية السلطان بذلك، وأمر بأن تُعمر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدوادار، وأن يدفن فيها السلطان في لحد تحت أرجل الفقراء وهم: الشيخ علاء الدين السيرامي الحنفى، والشيخ أمين الدين الخلواتى الحنفى، والشيخ عبد الله الجبرتى، والشيخ أبوبكر البجائى، والمجذوب أحمد الزهورى.

وقرر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم بعده بتدبير ابنه فرج، وأن يكون وصياً على تركته ومعه تغرى بردى بن يشبغا (والد المؤرخ أبى المحاسن ابن تغرى بردى) أمير السلاح.

وقد توفى السلطان برقوق ليلة الجمعة الخامسة عشر من شوال وقد تجاوز الستين من العمر بعد أن حكم سلطناً إحدى وعشرين سنة وسبعة وخمسين يوماً، ودُفن حيث أوصى.

وعن صفاته وأخلاقه وإنجازاته فإننا نجملها فيما أفاض فيها المؤرخ ابن تغرى بردى المعاصر للسلطان برقوق، وهى أنه كان ملكاً جليلاً حازماً شهماً شجاعاً مقداماً صارماً فطناً عارفاً بالأمور والوقائع والحروب سيوساً عاقلاً ثباً وعنده شهامة عظيمة ورأى جيد ومكر شديد وحدث صائب.

وقد كان شهماً فى جمع المال أكثر من المماليك محباً لاقتناء الخيول والجمال. وكان يحب أهل الخير والصالح، وكان كثير الصدقات والمعروف يبعث فى كل سنة إلى بلاد الحجاز ثلاثة آلاف



إردب قمحاً تفرق فى الحرمين ، وقد أبطل عدة مكوس ، وأنشأ بالقاهرة مدرسته التى لم يُعمّر مثلها بين القصرين وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة . وعمّر جسراً على نهر الأردن بالغور فى طريق دمشق طوله مائة وعشرون ذراعاً فى عرض عشرين ذراعاً ، وجدّد خزائن السلاح بثغر بالإسكندرية وبنى بركة بطريق الحجاز ، وجدّد عمارة القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل ، وجدّد عمارة الميدان من تحت القلعة وغرس فيه النخل ، وعمّر صهريجاً ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل وجعل عليه وقفاً ، وعمّر أيضاً بالقلعة طاحوناً وسبيلاً تجاه باب دار الضيافة تجاه القلعة .

السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق؛

ذكر سلطنته الأولى (٨٠١-٨٠٨هـ / ١٣٩٨-١٤٠٥م)؛

هو السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الظاهر برقوق، الجركسى الأصل ، المصرى المولد والمنشأ السلطان الثانى من سلاطين الجراكسة وأمه أم ولد رومية تسمى (شيرين) ، ماتت فى سلطنته ، وُلد سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م قبل خلع أبيه برقوق من السلطنة وحبسه بالكرك ، وتولى السلطنة بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة منتصف شوال سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م ، بعهد من أبيه ، ونُعت بالملك الناصر ، ولما تم أمر الناصر فرج بعد أن دفن والده وصار الأتابك أيتمش مدبر ملكه جلس السلطان بدار العدل على عادة الملوك وخلع على الأمير أيتمش والأمير تغرى بردى والأمير أرغون شاه والأمير بيبرس الداوادر وعلى جميع أرباب الدولة .

وكان المفروض لو سارت الأمور طبيعية أن يقوم مجلس الوصاية على السلطان وهو طفل فى سن العاشرة أن يمارس مجلس الوصاية شئون السلطنة برئاسة الأمير أيتمش البجاسى مدبر المملكة بحكم منصبه ، إلا أن المؤامرات ضد السلطان والمنافسات بينهم بدأت صبيحة تولى فرج السلطنة .

وقد بدت معارضة أمراء المماليك لتولى فرج السلطنة بامتناع الأمير سودون أمير آخور عن حضور موكب السلطان الجديد فكان مصيره السجن ، وفى السنة التالية ثار الأمير تنم ، نائب الشام وعضو مجلس الوصاية وأعلن العصيان وأطلق المسجونين بقلعة دمشق ، وانضم إلى صفه نواب صفد وطرابلس وحماء وحلب والعربان والتركمان . كذلك ثار أيتمش على السلطان ووقف إلى



جانب نائب الشام، ولكن سرعان ما استطاع السلطان إخماد هذا التمرد والقبض على المشتركين فيه.

ولقد تلى حركات التمرد هذه ضد السلطان حركات أخرى في مصر والشام، وكان أشدها تلك الثورة التي قام بها نائب غزة، والثورة التي قام بها الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس بمعونة العربان والتركمان. وبسبب ازدياد هذه الثورات التي قام بها أمراء المماليك الجراكسة ضد السلطان فرج حاول السلطان الخلاص منهم وعدم الاعتماد عليهم والاعتماد على من كان بالبلاد من أخواله من الروم، إلا أنه فشل في ذلك فاضطر إلى الفرار من القلعة وترك العرش والاختباء في بيت الأمير سعد الدين بن غراب سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة مع تولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان.

السلطنة الثانية لفرج بن برقوق (٨٠٨-٨١٥هـ / ١٤٠٥-١٤١٢م):

لما تولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور في البلاد والوصاية على السلطان الطفل ثارت غيرة يشبك الشعباني الذي عاد دوا داراً، كما كان في السابق، وأخذ يتدبر عودة فرج إلى السلطنة وأخذ هو وابن غراب مع أنصار فرج يمهّدون لعودته إلى السلطنة وبالفعل نجح أعوانه في هزيمة أعوان أخيه عبد العزيز أواخر العام الذي اختفى فيه فرج وإعادة فرج سلطاناً على البلاد، وقد قام فرج بسجن أخويه عبد العزيز وإبراهيم اللذين ماتا في السجن دون معرفة سبب وفاتهما.

وخلال السلطنة الثانية لفرج ثار ضده بجكم العوضى نائب حلب في مقر ولايته سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م، وتلقب بالملك العادل وقام بالاستيلاء على معظم بلاد الشام من غزة إلى الفرات وصارت تابعة له، وخطب له من فوق المنابر وضرب السكة باسمه إشارة إلى استقلاله عن التبعية لدولة الناصر فرج، إلا أن هذا الأمير لقي مصرعه بعد شهرين من إعلانه العصيان ومحاولة الاستقلال على يد رجل من التركمان.

وما كاد السلطان فرج يتخلص من والي حلب، حتى ثار ضده نودوز نائب الشام وشيخ نائب طرابلس وحذا حذو بجكم في محاولة الاستقلال، وحاول السلطان أن يفرق بين الثائرين وأن يستميل إليه أقواهما، فأصدر أمره بعزل نوروز عن نيابة الشام وإضافة تلك النيابة إلى شيخ، لكن محاولة السلطان فشلت في استقطاب شيخ بل زادت شيخاً إمعاناً في الخروج بعد أن تأكد له ضعف السلطان وقد قام شيخ ونوروز بقطع اسم فرج من الخطبة على منابر دمشق وأعمالها.

ولم يعد للسلطان من أمر سوى الخروج لحرب هذين الثائرين وسار بقواته متجهاً إلى الشام وما إن وصل إلى منطقة اللجون بظاهر دمشق إلا ووجد قوات الشام مستعدة له فدارت الدائرة



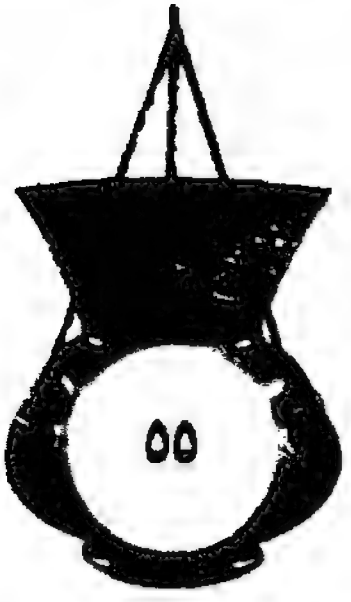
عليه سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م وقُبض عليه وقتل أشنع قتله على يد جماعة من
الهداوية وظلت جثته ملقاة بمزبلة خارج دمشق ثلاثة أيام ثم دُفِنَ بدمشق.

وكان فرج عتد خروجه إلى الشام قد اصطحب معه الخليفة المستعين بالله
والقضاة لتثبيت جنوده أمام أعدائه، لكن بعد قتل السلطان اجتمع الأمير شيخ
مع الأمير نوروز بالخليفة المستعين والقضاة وكتبوا محضراً بخلع السلطان فرج
وباختيار الخليفة سلطاناً على البلاد على أن يكون شيخ أتابك العسكر ومدير
المملكة بمصر ويكون الأمير نوروز نائب الشام والمتصرف المطلق في أموره ووافق الخليفة على ذلك
بعد تعهده بألا يقضى في أمر من الأمور إلا بعد مراجعة الأميرين شيخ ونوروز.

هذا عن تطور الأحداث في سلطنة الناصر فرج، أما عن حروب تيمورلنك في عهد هذا
السلطان، فمن المعلوم أن السلطان فرج تولى السلطنة في نفس العام الذي توفي فيه أمير سيواس
القاضي برهان الدين، وقد علم بذلك تيمورلنك وهو يحارب في الهند، كما علم بأن أحمد بن
أويس والي بغداد قد تغلب على الحامية التي كان تيمور قد تركها هناك واستعاد ولايته بمساعدة قره
يوسف التركماني.

ولذا عاد تيمورلنك في العام التالي (٨٠٢هـ / ١٣٩٩م)، بجيوشه وعبر نهر جيحون متقدماً
نحو العراق، وما إن أحس ابن أويس بذلك حتى ترك بغداد وفر مع قره يوسف إلى حلب، وقد
تصدى نائب حلب ونائب حماء لقوات تيمورلنك الذي أحرز النصر عليهم، وقام تيمورلنك
بالاستيلاء على سيواس والقضاء على حاميتها، وتابع تيمورلنك زحفه على بلاد دولة المماليك
فاستولى على مرعش وعيتاب، وأوقع هزيمة ثقيلة بالجيش المملوكي عند حلب (ربيع أول
٨٠٣هـ / أكتوبر ١٤٠٠م).

ووصلت أنباء هزائم الجيش المملوكي إلى مصر، فأصاب الناس الذعر والفرع مخافة أن
يتقدم تيمورلنك لغزو مصر ويفعل في أهلها ومدنها ما فعله في أهالي ومدن البلاد التي قام
بغزوها، لكن السلطان فرج تماسك وطالب الناس بالتماسك ونادى بالحرب وإعداد الجند للقتال،
وخرج الشيخ سراج الدين عمر البلقيني شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وبعض الأمراء ينادون في
شوارع القاهرة بالنفير العام والخروج لقتال التار، وخرج السلطان فرج على رأس جيشه سنة
٨٠٣هـ / ١٤٠٠م وبصحبه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة، وقابل الجيش المصري جيش
تيمورلنك خارج دمشق وأصيب الجيش المملوكي بخسائر فادحة، إلا أن تيمورلنك تجنباً منه لشتاء



الشام القارس البرد أرسل يطلب التفاوض فى الصلح فقبل فرج ذلك وعاد إلى مصر فى أوائل العام التالى .

عمل السلطان فرج، بعد عودته إلى مصر، على إعداد قواته لملاقاة المغول وبينما كانت الاستعدادات العسكرية تجرى بمصر، امتنع أهل دمشق بمدينتهم وعبثاً حاول تيمورلنك فتحها عنوةً فأرسل بطلب الصلح مع أهل دمشق، ولقد استعمل تيمورلنك الحيلة والخديعة مع أهل دمشق حين طلبوا منه الأمان وأعطاه

لهم، وفتحوا له باب دمشق الصغير لكنه غدر بعهدة كعادته ودخلت جنوده دمشق تقتل وتخرّب وتحرق وتعيث فى المدينة الفساد، وقام تيمور بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت وقيل أن تيمور ظل فى دمشق ولم يغادرها إلا يوم الثانى من شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٩ مارس ١٤٠١، لإصابته بمرض الحمرة بعد إقامته بها مدة ثمانين يوماً، وفى ذلك اليوم جاء رجاله له بنحو عشرة آلاف طفل مسلم كان أهاليهم فى الأسر لعله يطلق سراحهم، فنظر إليهم تيمور مدة ساعة ثم أمر رجاله بدهسهم تحت أرجل الخيل فماتوا جميعاً، ولما لأمه على فعلته الشنعاء هذه بعض قواده قال له: «إن قلبى ما نزلت فيه رحمة من أجلهم، أنا غضب الله فى أرضه يسلطنى على من يشاء من خلقه».

ولقد أخذ تيمورلنك معه، وهو يغادر دمشق خيرة أهلها ونسائها وسائر أرباب صنائعها إلى سمرقند، وفى طريق عودته من الشام وقعت معركة بين المغول والعثمانيين عند مدينة أنقرة سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م، هزم فيها السلطان بايزيد العثمانى الذى أسره تيمور فى المعركة وحمله معه فى قفص إلى بلاده التى قفل إليها راجعاً، وما إن وصل تيمورلنك إلى سمرقند حتى توفى بها عام ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م.

وبعد وفاة تيمورلنك تنفست البلاد الصعداء من خطر التتار، وذلك لأن الانقسام والتمزق أصاب دولته من بعده، الأمر الذى أدى إلى ضعف قوة التتار بسبب النزاع الذى وقع بين أبناء تيمورلنك وأحفاده وزيادة الصراع بينهم على تولى الحكم، واستطاع «شاه رخ»، وهو أحد أبناء تيمورلنك الأقوياء، أن يحكم فى منطقة خراسان وفارس وكرمان، وأن يوطد حكمه فى تلك البلاد، واستطاع شاه رخ أن يسترد سمرقند وبلاد ما وراء النهر من يد ابن أخيه ميرانشاه، واتسعت سلطات شاه رخ حتى شملت جميع بلاد فارس (إيران الحالية) وقد طالت مدة حكم شاه رخ على بلاده وزادت عن الأربعين عاماً (من ٨٠٧ - ٨٥٠هـ / ١٤٠٤ - ١٤٤٧م).

ولقد أظهر شاه رخ علاقته المسالمة مع دولة المماليك، وحاول التقرب والتصالح مع سلاطينها، بداية من عصر حكم السلطان المملوكى سيف الدين برسباى (٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٧م) ولقد أرسل شاه رخ سفيراً من عنده إلى برسباى يطلب منه بعض المؤلفات الدينية



والتاريخية، كذلك يستأذنه فى السماح له بإرسال كسوة الكعبة التى كان حكام مصر يقومون بإرسالها إلى مكة المكرمة منذ العهد الفاطمى، كذلك رواتب أمراء الحرمين الشريفين، وكانت كسوة الكعبة وإرسالها يمثل آنذاك مظهراً من مظاهر السيادة المصرية على بلاد الحجاز وحماية من سلاطينها للحرمين الشريفين، وقد رفض السلطان برسباى طلب شاه رخ، الذى عاود طلبه ثلاث مرات مع إرساله الهدايا للسلطان برسباى دون فائدة.

ولما يئس شاه رخ من استجابة السلطان المملوكى لمطلبه بصدد كسوة الكعبة أرسل يطلب منه ما هو أكثر من ذلك، أرسل يطلب منه إقامة الخطبة له وضرب اسمه على السكة إلى جانب اسم السلطان المملوكى، ورد برسباى على هذه الرسالة بإهانة سفير التتار وتمزيق الخلعة التى أرسلها له صحبة الرسالة فتوترت بذلك العلاقة بين الجانبين المملوكى والمغولى، واستمرت على توترها حتى وفاة السلطان برسباى سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م.

وفى عهد السلطان سيف الدين جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م)، تحسنت العلاقات بين المغول والمماليك وتبادل السلطان المملوكى وشاه رخ المراسلات الطيبة والهدايا القيمة وقد سمح السلطان جقمق لشاه رخ بإرسال كسوة الكعبة سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م، على أن توضع كسوته أسفل كسوة السلطان المملوكى على الكعبة، ووافق شاه رخ سنة على ذلك، وظلت العلاقات طيبة بين جقمق وشاه رخ حتى وفاة شاه رخ سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، وقد استمرت هذه العلاقة الطيبة بين سلاطين المماليك البرجية وحكام المغول طوال بقية العهد المملوكى.

السلطان المؤيد شيخ الحمودى (٨١٥ - ٨٢٤هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٠م):

وهو السلطان المؤيد أبو النصر شيخ الحمودى وهو أحد مماليك الظاهر برقوق، وعرف بالحمودى نسبة إلى التاجر الخواجا محمود شاه، الذى باعه للسلطان برقوق وهو فى سن الثانية والعشرين تولى السلطنة يوم الإثنين أول شعبان سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م بعد خلعه الخليفة المستعين عن السلطنة، الذى كانت سلطنته سلطنة اسمية، وقام بسجنه فى برج القلعة ثم حمله إلى الإسكندرية فسجنه بها. ويعتبر عهد المؤيد شيخ عهداً هادئاً من حيث الدسائس والفتن قياساً إلى عهد السلطان برقوق وابنه فرج، ولم يخرج عن طاعة المؤيد شيخ سوى نوروز المتمكن فى بلاد الشام، والذى رفض أول الأمر أن يقبل الأرض بين يديه أو يخطب باسمه من فوق المنابر ولكنه أبقى الخطبة للخليفة المستعين، كذلك رفضه ضرب السكة باسمه، وقد أدى ذلك إلى قيام السلطان بحربه فى السنة التالية والتخلص منه بالقتل، كذلك فقد خرج المؤيد شيخ مرتين آخرين إلى بلاد



الشام للقضاء على ثورات بعض النواب هناك ونجاحه فى ذلك، هذا ولم يزل المؤيد شيخ سلطانا على مصر والشام حتى وفاته يوم الإثنين ثامن المحرم سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢٠م، فكانت مدة سلطته ثمانى سنين وخمسة أشهر وستة أيام.

فأقيم من بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد، وعمره سنة واحدة ونصف، فقام بأمره الأمير (ططر)، وفرق ما جمعه المؤيد من الأموال، وخرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام، فظفر بهم، وبعد

ذلك قام بخلع المظفر من السلطنة الذى كانت مدة سلطته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام، وتولى السلطنة مكانه باسم السلطان الملك الظاهر أبى الفتح ططر، وهو أحد مماليك الظاهر برقوق، جلس على تخت السلطنة بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشر شعبان سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢٠م، وقدم إلى القلعة (قلعة الجبل) وهو موعوك البدن فى يوم الخميس رابع شوال فثقل عليه مرضه من يوم الإثنين ٢٢ فى الشهر حتى وفاته يوم الأحد ١٤ ذى الحجة، فكانت مدة سلطته ثلاثة أشهر ويومين. فأقيم من بعده ابنه السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد، وعمره نحو عشر سنين، فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى، ثم خلعه بعد أربعة أشهر وأربعة أيام وقام من بعده السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى، أحد مماليك الظاهر برقوق الذى تولى عرش السلطنة يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م.

ومن الملاحظ فى تاريخ سلاطين المماليك أن الفترة من بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ الحمودى فترة تكررت فيها الفتن والمنافسات، والظاهرة المميزة لهذه الفترة حتى نهاية العصر المملوكى كثرة ثورات (الجلبان) الذين يجلبهم كل سلطان جديد من المماليك، بسبب أن هؤلاء الجلبان كانوا فى معظمهم عند شرائهم لم يكونوا أطفالاً بل جاوزوا سن البلوغ، فلم يلبثوا حتى صاروا مصدر قلق وفوضى وشغب، بل صاروا خطراً يهدد حياة السلاطين أنفسهم. ولقد كثر خروج هؤلاء الجلبان مما حمل بعض عظماء سلاطين هذه الفترة على العمل على ترضيتهم والتنازل على حكمهم، وقد جاءت فتن هؤلاء الجلبان الداخلية فى فترة وقعت فيها أحداث عالمية خارجية كبرى كان لها تأثيرها المباشر على دولة المماليك الكبرى، ومن هذه الأحداث وقوع الكشوف الجغرافية وتزايد نفوذ القوة العثمانية.

ومن الملاحظ أيضاً أن النزاع على السلطنة فى تلك الفترة كان سريعاً وحاسماً بدليل سرعة تغير حكم السلاطين وقصر مدة حكم غالبيتهم. وفى فترة لم تتجاوز أربعة عشر شهراً تولى حكم البلاد أربعة سلاطين، وفى فترة لا تزيد عن العامين تولى السلطنة أربعة سلاطين آخرين، ومن بين هؤلاء وهؤلاء من حكم دون الشهرين، بل إن منهم من لم تطل سلطته عن ثلاثة أيام، على أن

هذا لا ينفي وجود عهود حكم سلاطين طويلة، مثل عهد خشقدم وجقمق وبرزباى وقايتباى.



السلطان الأشرف سيف الدين برزباى (٨٢٥-٨٤١هـ / ١٤٢١-١٤٣٧م):

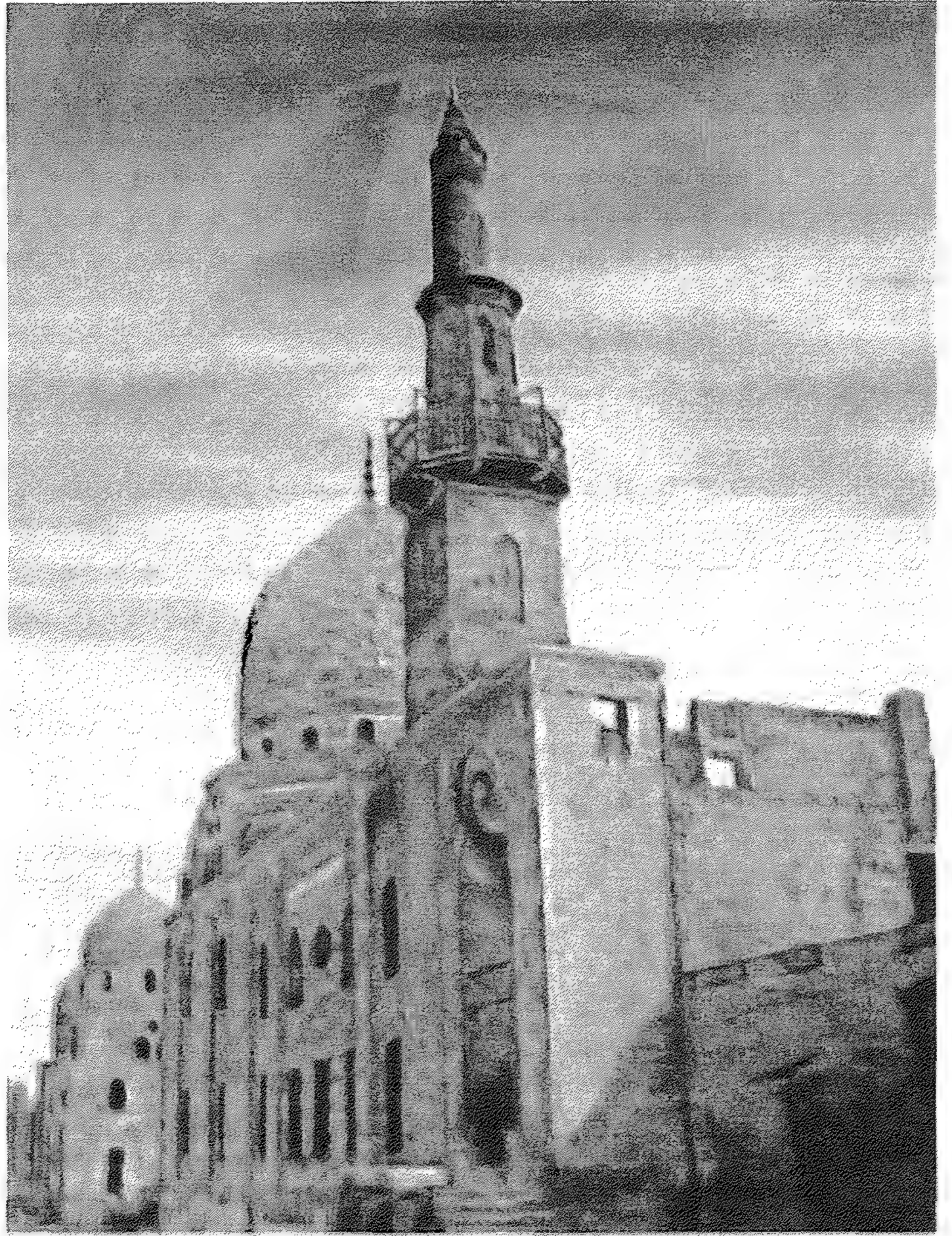
هو السلطان الأشرف سيف الدين أبو النصر برزباى، أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق، كان وصياً على السلطان الطفل الصالح ناصر الدين محمد، وقام بخلعه عن السلطنة، بحجة صغر سنه، وتولى السلطنة مكانه يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م، وقد حكم برزباى ما يزيد عن ستة عشر عاماً حتى وفاته ثالث عشر ذى الحجة سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٨م، وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة وتسعة شهور.

وتعتبر مدة حكم السلطان برزباى مدة طويلة، لم يتفوق عنه فى طول مدة حكمه من سلاطين الجراكسة سوى السلطان الأشرف قايتباى، ولقد اتبع السلطان برزباى سياسة احتكار الدولة لسلع كثيرة وخصوصاً التوابل التى كانت من أهم سلع التجارة العالمية بين الشرق والغرب، الأمر الذى أضر بالتجار والناس وخاصة تجار الكارم وأدى إلى سوء الحالة الاقتصادية وارتفاع الأسعار، إلا أن عهد هذا السلطان تميز بالأمن والأمان وقلة الفتن والمؤامرات مما جعل السلطان برزباى يتفرغ للقيام بالتصدي للحرب ضد الصليبيين.

مئذنتا مسجد المؤيد شيخ

وبينهما باب زويلة





مئذنة مسجد برسباى

ولقد ساءت فى عهد
هذا السلطان علاقة مصر
المملوكية مع الصليبيين فى
الوقت الذى تحسنت فيه
علاقتها بمغول فارس فى عهد
حكم شاه رخ، ابن
تيمورلنك. وكان الصليبيون
بعد هزائمهم المتلاحقة
واندحار حملاتهم العسكرية
المنظمة ضد مصر فى عهد
سلاطين المماليك البحرية قد
استعاضوا عنها بالقيام
بعمليات تخريب واسعة

للموانى المصرية والشامية على يد متجربة البحر الكتلان بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاستبارية
بجزيرة رودس، وذلك بقصد ضرب الحركة التجارية للموانى الإسلامية فى كل من مصر والشام.

ولقد ردت مصر المملوكية فى عهد برسباى على هذا العمل الصليبي العدواني الجديد بإنزال
غزوات انتقامية على جزيرتى قبرص ورودس، معقل هؤلاء القراصنة الصليبيين وقد نجحت تلك
الغزوات فى استيلاء المسلمين فى ذلك العهد على جزيرة قبرص سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م، وتهديد
جزيرة رودس وإتاعابها فى عهد السلطان جقمق. وقد استمرت جزيرة قبرص، منذ ذلك الوقت،
تابعة لمصر حتى زوال دولة سلاطين المماليك، وظلت محاولات المسلمين فى إسقاط رودس فى
أيديهم ونجحوا فى ذلك سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م حين خضعت للسيادة العثمانية، وانتقل مركز
فرسان الاستبارية الصليبيين منها إلى جزيرة مالطة فى البحر المتوسط، حيث ظلوا هنالك إلى أيام
مجيء نابليون بونابرت بحملته على مصر سنة ١٧٩٨م.



ولقد حاول الصليبيون فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، إدخال الحبشة المسيحية إلى جانبهم فى الحرب ضد مصر المملوكية، وذلك بالتفكير فى إرسال حملة صليبية مزدوجة تطبق على مصر من الشمال والجنوب براً وبحراً فى وقت واحد، لكن هذا الحلف الصليبي المقترح لم يكتب له الظهور، بسبب نجاح المماليك فى تحييد الحبشة وعزلها عن هذا الصراع.

كذلك ظهرت على مسرح الأحداث آنذاك الدولة العثمانية إلى جانب القوة الإسلامية، وصارت منذ بداية هذا القرن خطراً داهماً بات يهدد بلاد أوروبا جميعها، بعد أن ضمت هذه الدولة بلاد البلقان إلى ممتلكاتها وصارت جيوشها على أهبة الاستعداد لغزو وسط أوروبا.

واشتدت الحروب الصليبية أيضاً على بلاد المغرب الإسلامى والأندلس، ونجح الصليبيون هناك فى إنهاء الحكم الإسلامى فى الأندلس بعد أن دام فيها مدة ثمانية قرون كاملة، كما دفعت هذه الروح الصليبية البرتغاليين للقيام بكشف طريق رأس الرجاء الصالح كبديل لطريق البحرين المتوسط والأحمر، وذلك بقصد حرمان بلاد العالم الإسلامى، وبخاصة مصر، من عائد التجارة العالمية الذى هو أساس ثرائها الاقتصادى وقوتها العسكرية.

الظاهر سيف الدين جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م):

بعد وفاة برسباى بايع أمراء المماليك ابنه العزيز يوسف بالسلطنة، وكان فى الرابعة عشر من عمره، فلم يستطع الاحتفاظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء المماليك عندئذ وهو سيف الدين جقمق، الذى كان قد تولى الوصاية والحجر عليه، وقد قام أمراء المماليك بعزل العزيز يوسف بن برسباى وتولية جقمق السلطنة بعد شهور قليلة.

وقد تولى جقمق السلطنة سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، وهو يكون بذلك السلطان الحادى عشر من سلاطين الجراكسة، وقد استمر فى السلطنة خمسة عشر عاماً كاملة وتعد فترة حكمه من فترات حكم سلاطين المماليك الطويلة. وقد كان حكم جقمق معتدلاً قياساً بحكم برسباى، وقد عرف جقمق بتدينه وورعه وتصديه للفساد ولكل ما حرمة الشريعة والدين، وكان يحاول أن يتشبه فى حكمه بحكم الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز.

وبرغم نزاهة حكم جقمق إلا أنه تعرض فى أوائل سنى حكمه للثورات التقليدية التى عرفها عصر سلاطين المماليك، وقد ثار ضده أتابك العسكر الأمير المملوكى قرقماش الشعبانى، كما ثار



ضده نائب دمشق فى بلاد الشام، كما وقعت فى عهده فتنة قام بها العبيد السودان فى منطقة الجيزة سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م، وقد نجح جقمق فى القضاء على تلك الثورات وذلك بالقبض على أتابك العسكر وسجنه والقبض على نائب الشام وقتله، أما عن فتنة العبيد السودان الذين تمردوا فى منطقة الجيزة وقاموا بنهبها، وأقاموا عليهم سلطاناً من بينهم غير معترفين بالسلطان المملوكى وساروا به فى موكب صاحب وهو يحمل العلم السلطانى، فوجه جقمق لهم رجاله الذين نجحوا فى تفريقهم وقتل وأسر عدد كبير منهم، وبيعت أعداد من أسراهم فى سوق النخاسين بالقاهرة بأسعار زهيدة، وأرسل الباقون فى سفينة ليبيعوا فى بلاد السلطان العثمانى.

ويمتاز عهد حكم السلطان جقمق بتحسين العلاقات بين المغول ودولة المماليك فى عهد تولى شاه رخ بعد تيمورلنك حكم الدولة التيمورية المغولية، كما أسلفنا، كذلك نجاح جقمق فى غزو جزيرة رودس التى كانت قاعدة للفرسان الاسبتارية من الصليبيين منذ سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م ومركز نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط. ولقد أرسل جقمق ثلاث حملات ضد رودس فى سنوات ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م، ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م، ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م، وكانت حملة جقمق الثالثة على رودس هى أخطر هذه الحملات، وقد حاصرت مدينة رودس عاصمة الجزيرة، مدة أربعين يوماً لكن المدينة صمدت للحصار بسبب مناعتها واستبسال رجال الاسبتارية فى الدفاع عنها ووصول الإمدادات الأوربية فى البحر لها. وقد انتهت العلاقة بين السلطان المملوكى وفرسان رودس بالصلح والهدنة، إلا أن العلاقة بين الطرفين الإسلامى والصليبي ظلت بين مد وجزر بين الهدوء والعداء طوال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

وتوفى السلطان جقمق سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م، بعد أن عهد بالسلطنة من بعده، وهو على فراش الموت لابنه فخر الدين عثمان الذى تولى السلطنة بالفعل بعد وفاة أبيه لمدة ثلاثة وأربعين يوماً، وقام الجيش بالثورة ضده وعزله على إثر توزيع النفقة عليهم بدنائير ذهبية مخلوطة، وقام قواد الجيش بسجنه وتكليف أتابكه الأمير المملوكى الأشرف سيف الدين إينال بتولى السلطنة مكانه، وذلك فى نفس العام.

السلطان الأشرف سيف الدين إينال (٨٥٧هـ - ٨٦٥هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م):

حكم السلطان الأشرف إينال مصر والشام ثماني سنوات (٨٥٧-٨٦٥هـ / ١٤٥٣-١٤٦١م)، ولم يتميز حكمه بشيء يذكر سوى خروج الجند الجلبان عليه وتمردهم وكثرة اعتدائهم على الناس ونهبهم المتاجر والأسواق، وتماديهم فى السلب والنهب حتى من مخازن الأمراء



أنفُسهم، وقد ثار الجليان ضد السلطان سبع مرات خلال حكمه الذي لم يزد عن الثمانى سنوات، بمعدل ثورة واحدة فى كل عام، وإضافة إلى وقوع عدة مؤامرات ضد السلطان، شارك فى واحدة منها سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م الخليفة حمزة، وقد قام أمراء المماليك بعزل إينال حين فشل فى ضبط الأمور فى البلاد، وأجبروه على التنازل عن السلطنة لابنه أحمد فلم يكن أمامه من بد إلا التنازل، غير أن ابنه الذى تولى السلطنة باسم المؤيد شهاب الدين أحمد سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م، لم يبق سوى أربعة شهور فى السلطنة قام أمراء المماليك بعزله بعدها وتولية السلطنة للأتابك خشقدم الرومى فى نفس العام.

السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤٦٠-١٤٦٧ م):

حكم السلطان خشقدم البلاد مدة سبع سنوات وتميز عهد حكمه بالهدوء، ولم يعكر صفو هدوئه سوى وصول جانم بك، نائب الشام إلى مصر بناء على دعوة سابقة من أمراء المماليك الذين خلعوا السلطان الطفل أحمد بن إينال، للقدوم لتولى السلطنة، إلا أنه لما تأخر عليهم فى القدوم إلى القاهرة قاموا بتولية الأتابك خشقدم سلطانا، وعند وصول جانم بك استطاع خشقدم إقناعه بالعودة إلى الشام واستمراره فى نيابته فعاد دون ممانعة. وقد أرسل خشقدم إلى جانم بك من يقبض عليه وهو فى طريقه إلى بلاده وقتله وبذلك تخلص غيلة من شره، وقد فعل خشقدم نفس الشيء مع جانم بك الدوادار الكبير بالقلعة حين أحس بخطرته على سلطنته فتخلص منه بالقتل وقام بتشتيت مماليكه الممتنعين فى القلعة وبذلك تخلص خشقدم من مناوئيه وحكم البلاد فى هدوء حتى وفاته عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م.

وقد تولى السلطنة بعد عزل خشقدم اثنان من أمراء المماليك فى سنة واحدة (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) لم يحكم أى منهما إلا لعدة شهور وهما : السلطان الظاهر سيف الدين بلباى، والسلطان الظاهر قمرغا، وقد اختار أمراء المماليك الأمير بلباى الملقب بالمجنون ليخلف خشقدم بعد وفاته، وقد كان ضعيف الشخصية اختاره الأمراء بسبب ذلك لكى يكون ألوبة فى يدهم ينفذون عن طريقه ما يريدون، وقد كان بلباى آلة فى يد الدوادار الكبير وزعيم المماليك الخشقدمية خير بك، وهو الذى رشحه لمنصب السلطنة ووافق به بقية الأمراء على ذلك، وأصبح بلباى لا يتصرف فى أمر من الأمور دون أخذ الإذن من خير بك.

وقد انقسم المماليك الجلبان آنذاك إلى فريقين، فريق عُرف بالخشقدمية وهم أتباع ومماليك السلطان خشقدم، والفريق الثانى عُرف بالمؤيدية وهم مماليك المؤيد إينال، ووقع الصراع بين



الفريقين إلى أن اتفقا على عزل بلباي وسجنه وتولية السلطنة لأتابك العساكر تمربغا الرومى بعد شهرين من سلطنة بلباي. ورغم ما تميز به تمربغا من كفاءة فى فنون الفروسية إلا أنه عجز عن إرضاء المماليك الخشقدمية الذين، قاموا بعد ٥٨ يوما من حكمه بالقبض عليه وسجنه بتدبير من زعيمهم الدوادار خير بك.

وكان خير بك طامعاً فى السلطنة منذ تولى بلباي السلطنة، فجاءته

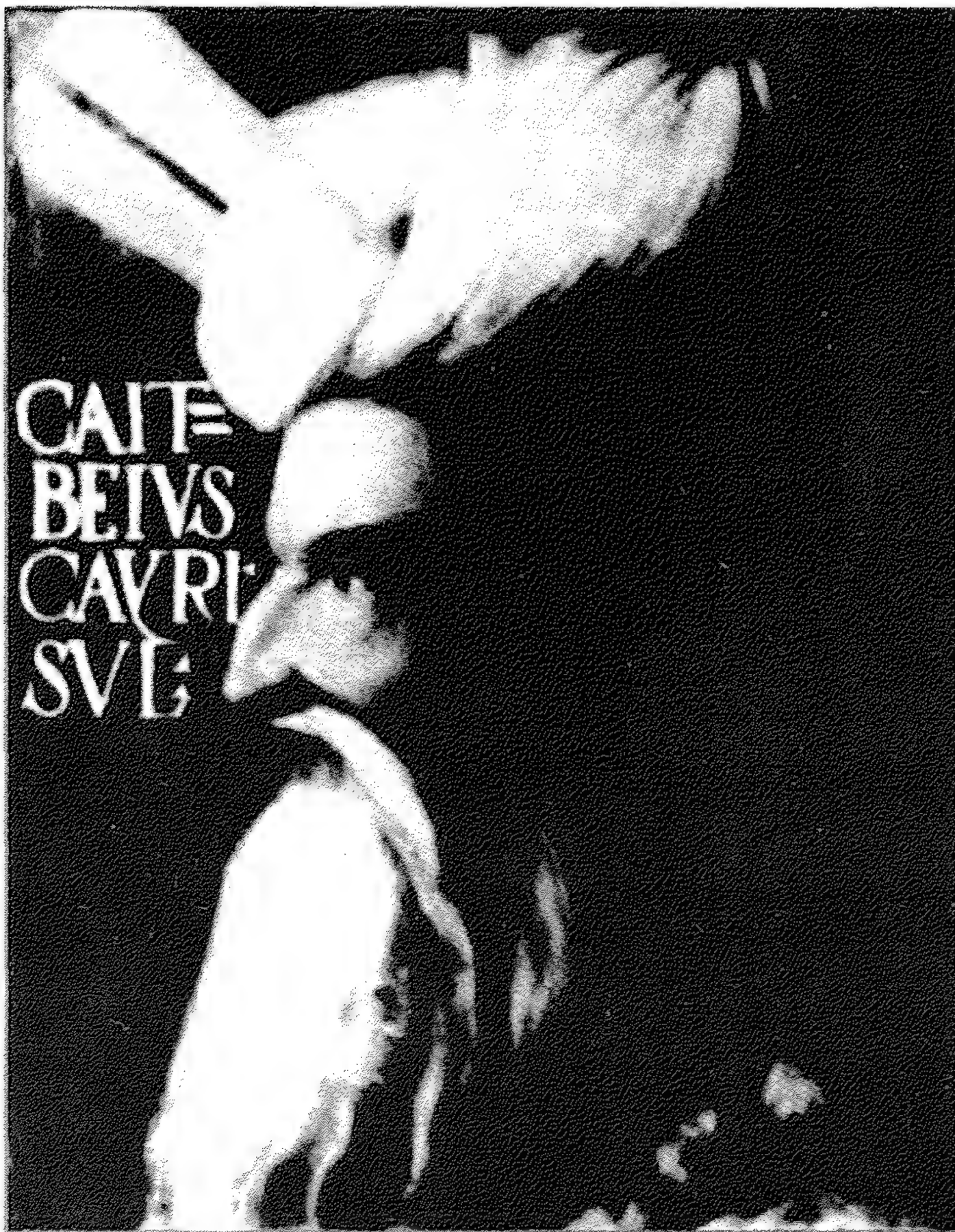
الفرصة بعد سجن تمربغا، فجلس على سرير الملك بالقلعة خلال الليلة التى تم فيها القبض على تمربغا وسجنه. وتلقب خيربك بلقب الملك الظاهر، وقبل له أنصاره الأرض بين يديه وتصرف تصرف السلاطين الفعلين، إلا أن الظاهر لم يستمر فى السلطنة سوى ليلة واحدة، وكان اعتلاؤه العرش فى المساء وتمت ازاحته فى الصباح التالى، مما جعل المعاصرين له يطلقون عليه لقب (سلطان ليلة).

وقد قام أمراء المماليك بعزله بزعامة الأتابك الأشرف سيف الدين قايتباى الذى حين علم بما يجرى فى القلعة أسرع يتصل ببعض فئات المماليك واستمالتهم لصفه واعداء إياهم بالمكافأة، فاتفقت كلمتهم جميعاً على خلع تمربغا وخير بك وسلطنة قايتباى، وصعد قايتباى إلى القلعة فى الحال مع طلوع النهار مما أدى إلى اضطراب خير بك الذى أخرج تمربغا من سجنه وأعادته إلى العرش. ووقعت مناوشات يسيرة بين جنود كلا الفريقين وانتهى الأمر بسيطرة قايتباى وخلع تمربغا وتولية قايتباى السلطنة بحضور الخليفة، وقد قام قايتباى بمراعاة حرمة تمربغا فأكرمه بتركه يعيش حراً طليقاً منفياً فى ثغر دمياط، أما خير بك فكان مصيره الحبس فى القلعة.

السلطان الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م):

يُعتبر عهد حكم السلطان قايتباى من أبرز عهود حكم سلاطين المماليك عامة، والمماليك الجراكسة على وجه الخصوص، ولم يكن ذلك لطول المدة التى حكم فيها قايتباى سلطاناً على مصر والشام مدة ٢٩ عاماً، ولكن أيضاً لكمال شخصيته وحسن تدبيره وقيادته وقوة دولة المماليك فى عهده وانتصاراته الرائعة التى حققها على العثمانيين والتركمان. وقد أثبت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه كان أقدر وأشجع سلاطين المماليك فى ساحة القتال وأكثرهم سياسة ودراية بشؤون العالم الخارجى وأمثلهم فى الحكمة والتدبير ومواجهة الصعاب، وأشدّهم جرأة فى التصدى للمشاكل الكبرى التى هددت دولته وسلطانه.

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت دولة المماليك فى ذلك العصر هى مشكلة الخطر الذى هدد الدولة وأطرافها الشمالية فى شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى من جانب الدول



السلطان قايتباي - رسم چتيلبي

التركمانية
التي هددت
ممتلكات
الممالك في
تلك
البلاد،



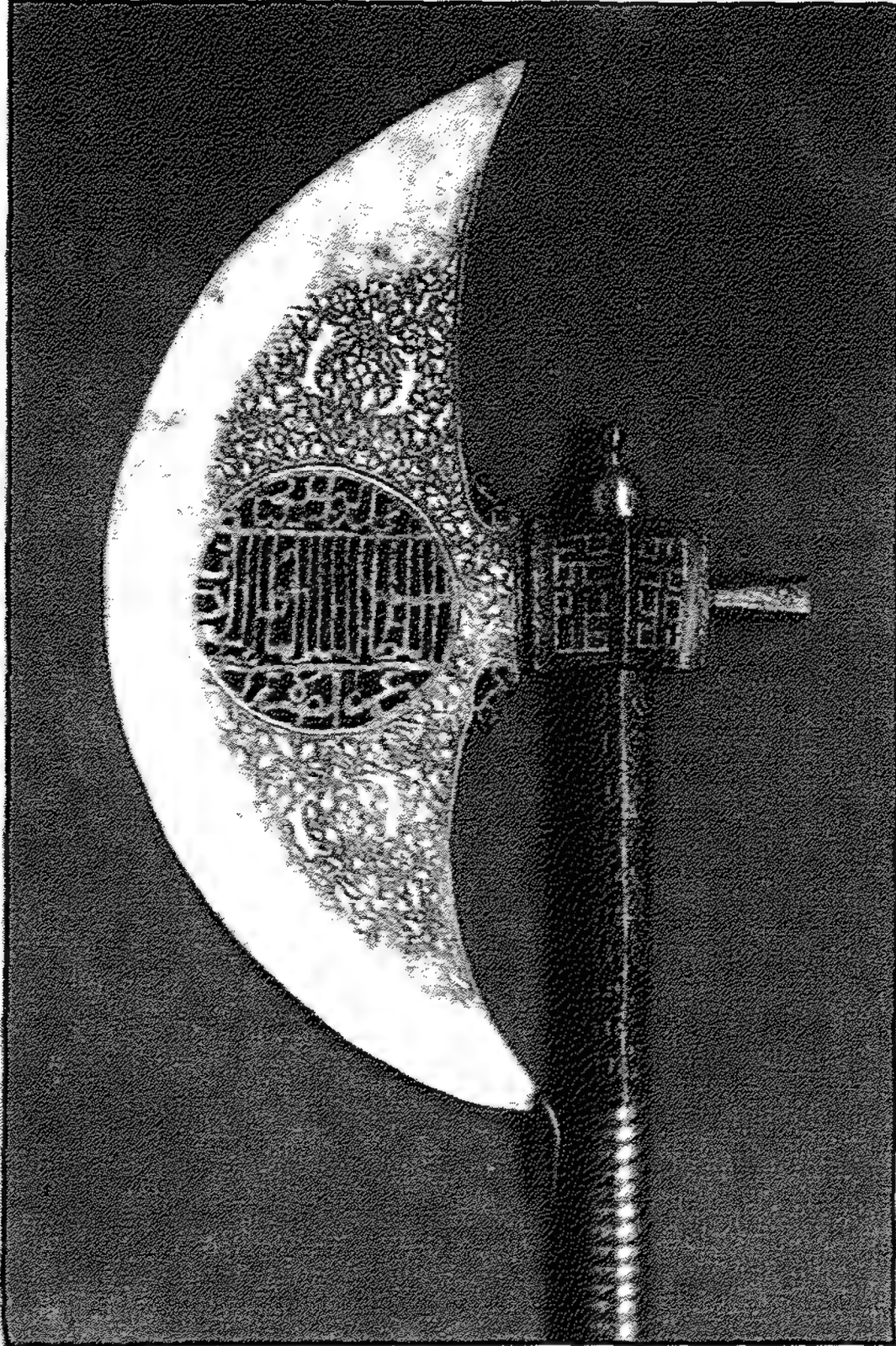
وأهم هذه الدول هي : دولة
دلغادر ، ودولة رمضان،
ودولة قرمان، ودولتي الشاه
البيضاء والشاه السوداء، وقد
تعرضت بلاد الممالك المتاخمة
للدويلات التركمانية لهجمات
عسكرية من قبل هذه
الدويلات منذ أيام حكم
السلطان المؤيد شيخ
المحمودي، وقد رأينا كيف قام
السلطان المؤيد شيخ سنتي
٨٢١، ٨٢٢هـ / ١٤١٨،

١٤١٩م بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام تلك الدويلات التركمانية على
الخضوع لسلطنة الممالك. وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا وقتها في إرهاب التركمان مما
جعلهم يهدأون مؤقتاً عن التعرض لحدود الدولة المملوكية، إلا أن هجومات التركمان على تلك
الحدود قد تجدد أثناء وقوع سوء التفاهم بين السلطان المملوكي برسباي وشاه رخ حاكم المغول حول
موضوع كسوة الكعبة. فأغار زعيم دولة الشاه البيضاء على حدود الدولة المملوكية ببلاد الشام مما
دعى برسباي إلى الرد على التركمان بإرسال حملة قامت بتخريب مدينة الرها، التي كانت تابعة
للساه البيضاء سنة ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م. ورغم هذه الحملة فإن العمل الذي قام به برسباي لم يكن
حاسماً ليردع التركمان، ولم يعاود برسباي الكرة على التركمان بسبب اختلال أحوال البلاد في
أواخر عهد حكمه، وظل الوضع هادئاً نسبياً بين الطرفين المملوكي والتركماني حتى وصول قايتباي
إلى الحكم .



ولقد حدث تطور فى الأمور آنذاك جعل قايتباى يتصرف سريعا حيال التركمان، وتمثل هذا التطور الجديد فى ازدياد نفوذ الأتراك العثمانيين فى تلك الإمارات التركمانية وزيادة تدخلهم فى شؤونها، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يشعر بالخطر الجديد ويفكر فى كبح جماح التركمان حتى لا يكونوا مطية لتغلغل النفوذ العثمانى فى الأطراف الشمالية لدولته لذلك قام قايتباى بإرسال عدة حملات عسكرية ضد دولة دلغادر التركمانية التى كان يتمتع أميرها بتأييد من السلطان العثمانى محمد الفاتح.

وقد قاد هذه الحملة المملوكية الأمير المملوكى يشبك الخاصكى سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م، ونجح هذا القائد فى هزيمة جيش شاه سوار والاستيلاء على عدة مدن وهى أذنه وطرسوس وقلعة عينتاب، وقد نجح هذا القائد أيضا فى القبض على شاه سوار وإرساله مقيداً إلى القاهرة وشنقه على باب زويلة. وقد قام الأمير يشبك، قبل مغادرته دلغادر بتعيين الأمير بوداق، أخى شاه سوار مكانه بعد إعلان ولائه لدولة المماليك دون دولة الأتراك العثمانيين.



وبعد تأديب إمارة دلغادر، قام السلطان قايتباى بتأديب إمارة قبيلة الشاه البيضاء، التى دأب حاكمها الأمير حسن الطويل على الإغارة على أعمال حلب، فأرسل إليها القائد الأمير يشبك سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م، ونجح يشبك فى إحراز النصر على التركمان عند البيرة على نهر الفرات.

ولما توفى الأمير حسن الطويل سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م، وسادت الفوضى إمارته، انتهز يشبك هذه الفرصة للاستحواذ على أملاك التركمان هناك، إلا أن أحد نواب يعقوب، ابن حسن الطويل استطاع أن يتصدى للحملة المملوكية وينتصر على يشبك فى المعركة التى دارت بينهما كما استطاع أسر يشبك وقتله مع عدد كبير من أمراء المماليك. ولقد اضطر السلطان قايتباى إلى عقد الصلح



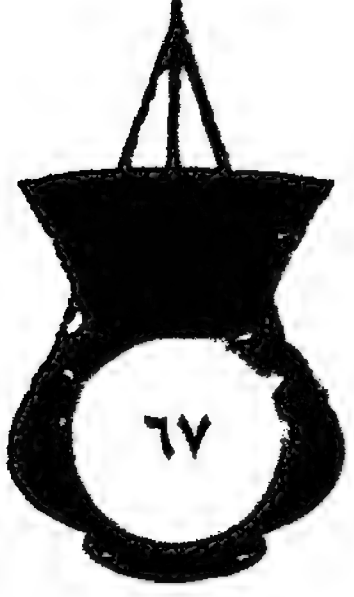
مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل لأن ظروفه آنذاك لم تكن تسمح له بمعاودة القتال والثأر للهزيمة التي وقعت لقواته بقيادة قائده يشبك .

ولقد أتعبت ثورات الجلبان المتكررة السلطان قايتباي وزهدته في منصب السلطنة الأمر الذي جعله يفكر أكثر من مرة في التنازل عنها وعدم أخذها لابنه من بعده، ولم يكن لهؤلاء الجلبان من هم سوى الحصول على مخصصاتهم ورواتبهم دون نظر إلى الظروف الاقتصادية والحربية السيئة التي كانت تمر بها الدولة آنذاك . ولما أعيتته وسائل اقناعهم تبرم منهم، وعقد مجلساً سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م ضم الخليفة والقضاة والأمراء وعرض أمر الجلبان عليهم وسوء الحالة المالية وأفاض في شرح ما تكبدته خزانة الدولة من أموال في سبيل تجهيز الجيوش لمحاربة الأعداء في الداخل والخارج، وطلب إلى المجلس إعفائه عن منصبه واختيار سلطان غيره لكن القضاة ألحوا عليه في البقاء حتى أثنوه عن عزمه، وقد تكرر هذا الأمر وعقد مثل هذا المجلس ثلاث مرات وفي كل مرة يصر السلطان على التنحي ويصر المجلس عليه في البقاء .

وهكذا كانت ثورات الجلبان من أكبر مشاكل السلطان قايتباي الداخلية، الأمر الذي جعله يزهد في الحكم والسلطنة ويرفض مبايعة ابنه لها بعد وفاته، والعهد له بولاية العهد خلال مرضه الأخير ٩٠١هـ / ١٤٩٦م عندما اقترح عليه أتابك العساكر تراز الشمسي أن يعهد لابنه .

وبرغم المشاكل التي تعرض لها السلطان قايتباي في الداخل والخارج، فإنه لم يهمل شؤون دولته ورعاياه، وبرغم تعسف هذا السلطان في جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاحتكار التي سنّها برسباي، لكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التي جمعها إضافة لأعداد الجيوش المقاتلة وإرضاء الجلبان بإعطائهم مخصصاتهم، فإنه أنفق الكثير من هذه الأموال في إقامة المنشآت العديدة والمباني الفخمة، والشاهد على ذلك قلعته بالإسكندرية وقلعته برشيد، ومسجده بالقاهرة، والوكالات التي أقامها . هذا فضلاً عما قام به من إصلاح وترميم آثار ومنشآت أسلافه من السلاطين، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة في القلعة ومساجد ذلك العصر ومدارسه .

ولقد اعتبر السلطان قايتباي ثاني سلاطين المماليك، بعد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون عناية بالفنون وبخاصة فن العمارة، وكان السلطان قايتباي قد جاوز الثمانين من العمر، واستبد به المرض، ورأى أن يتنازل عن عرش السلطنة لابنه محمد، ثم توفي قبل أن يحسم ذلك الأمر .



ولقد وقعت المنافسة بين أمراء الممالك على تولي السلطنة وبدأت والسلطان قايتباي على فراش المرض، وكان أول الطامعين فيها أتابك العساكر تمتاز الشمسي ولم يكن اقتراح تمتاز على قايتباي بالعهد لابنه من بعده عن حب لبيت قايتباي، ولكن للتمهيد لنفسه واتخاذ محمد بن قايتباي الذي كان يبلغ في ذلك الوقت أربعة عشر عاماً، قنطرة للوصول للحكم بعد أن يصير الوصي على محمد والمدير لأمر المملكة ورغم إظهار قايتباي عدم الرغبة في ذلك إلا أنه في الواقع كان يسعى في المبايع لابنه محمد مما عرضه لمنافسة أمير طامع أقوى منه هو الأمير قانصوه خمسة أمير آخور كبير.

وقد تصدى قانصوه لتمراز متبناً مشروع تولية محمد بن قايتباي، وقد نجح في المبايع له وقبض على تمتاز وسجنه، وفي اليوم التالي لذلك مات قايتباي دون أن يعلم بما وقع من أحداث في سلطنته، واستبد قانصوه بالأمر في السلطنة. وساءت تصرفات السلطان محمد بن قايتباي مما أدى إلى كثرة الفتن ضده، وسرعان ما يقضى قانصوه على زعماء الفتنة ويقوم بعزل السلطان عن السلطنة وتوليها مكانه وذلك بحضور مجلس القضاة والأعيان والخليفة. إلا أن سلطنة قانصوه كانت قصيرة للغاية فلم تدم سوى ثلاثة أيام حتى قام أنصار محمد بن قايتباي بمحاصرته في القلعة ولما يزل الخليفة والقضاة بحضرته، إلا أنه نجح في الهرب من القلعة، وقام المحاصرون بالإساءة للخليفة والقضاة الذين كانوا قد بايعوا لقانصوه وخطفوا عمائمهم وكادوا يقتلونهم وأفلتوا من أيديهم بصعوبة.

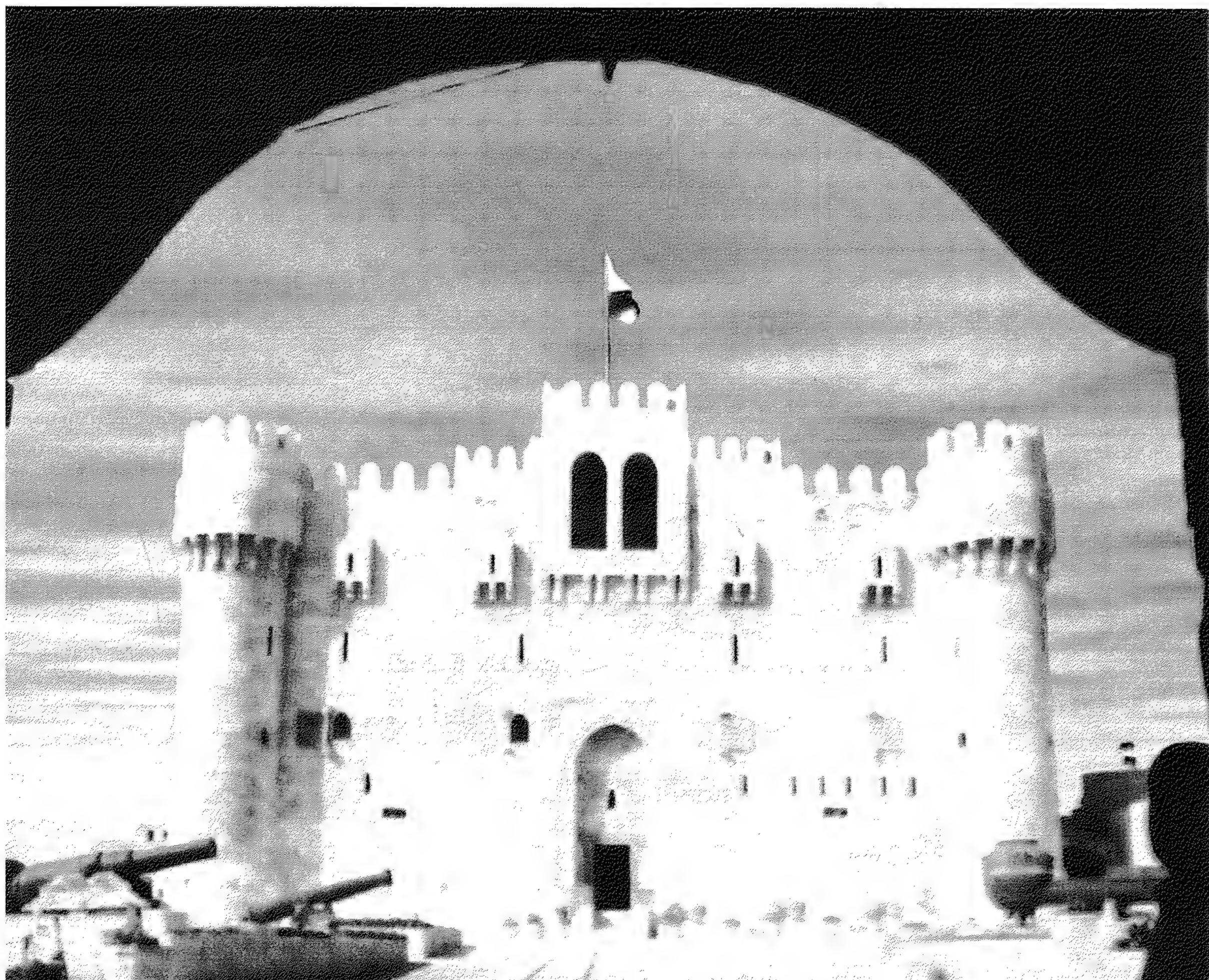
وقد بايع نفس هذا المجلس بالسلطنة لمحمد بن قايتباي للمرة الثانية، وأعيد تمتاز إلى منصبه، وقد حاول قانصوه عدة محاولات فاشلة لاستعادة السلطنة وانتهى أمره بالقتل.

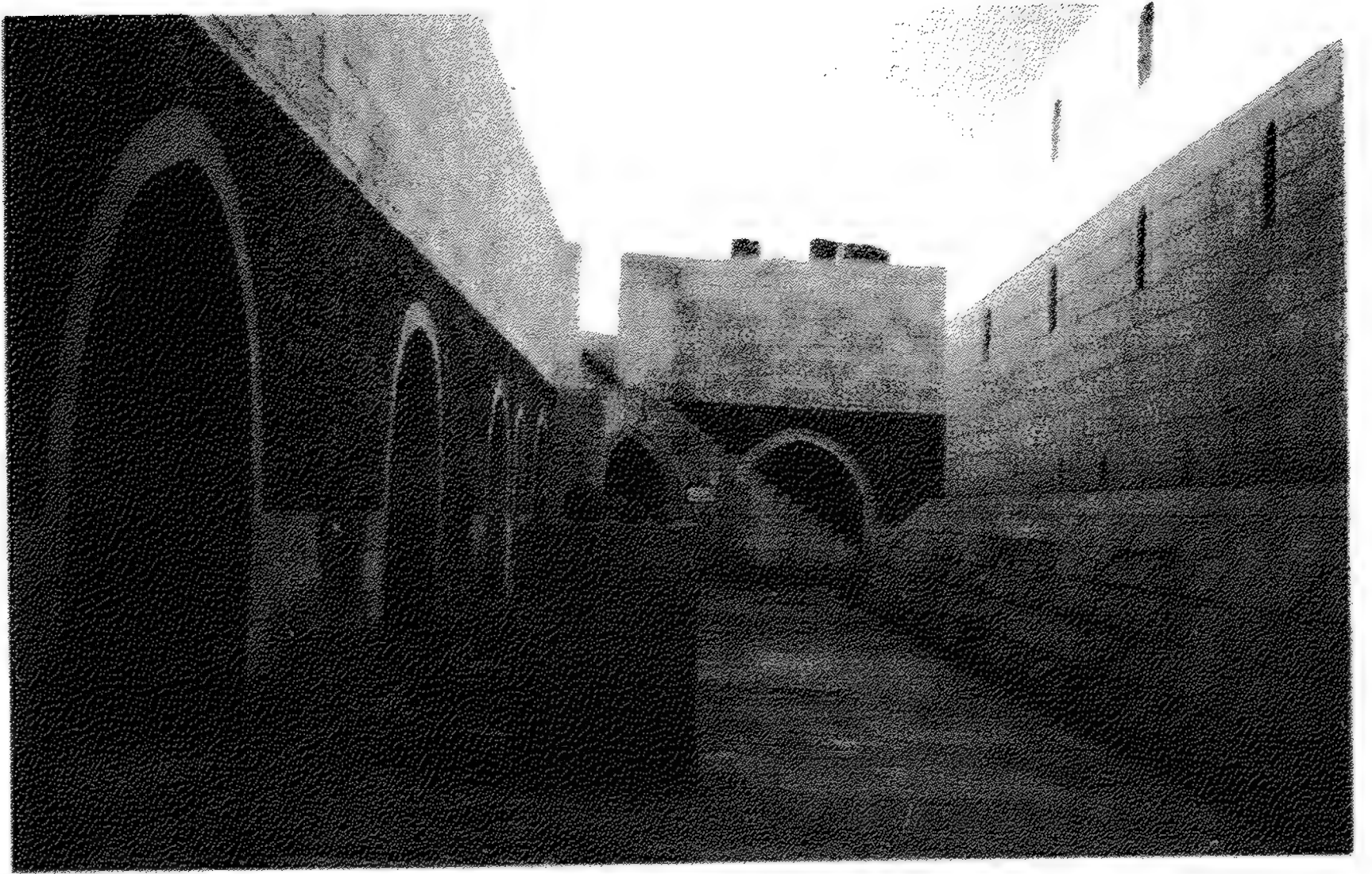
ولقد وقع محمد بن قايتباي فريسة استبداد الممالك الجلبان وساءت سيرته وقام بأفعال شنيعة مثل تلك التي قام بها سلفه السلطان فرج بن برقوق، وبلغ من استبداد الجلبان وخضوعه لهم أنه أخرج الكثير من الإقطاعات والأملاك والأرزاق وفرقها عليهم إقطاعات، مما أدى إلى إثارة المخلصين من أنصاره وأصحاب الفضل عليه في العودة إلى العرش، والقيام بالثورة ضده والخروج والتأمر عليه. ومن هؤلاء الأتابك تمتاز الشعبي، وخاله قانصوه عضده وساعده الأيمن في جميع ما تعرض له، والأمير طومان باي الدوادار الثاني والأمير أزيك. وقد استمال هؤلاء الناقمون على تصرفات السلطان وتهاونه مع الجلبان خال السلطان (قانصوه) إلى جانبهم وقتلوا السلطان، وكان طومان باي هو المتولى لهذا الأمر، ثم أرسل الخال من أحضر جثة السلطان القتل ودفنها، وكان عمر السلطان محمد بن قايتباي يوم قُتل سبعة عشر عاماً.

واجتمع الأمراء المماليك، وعرضوا السلطنة على الأمير أوزبك أرشدهم وأرفعهم مكانا فرفض رفضاً قاطعاً، وإزاء هذا الإصرار الحاسم والرفض القاطع من جانب الأمير أوزبك، اتفق الأمراء على سلطنة قانصوه خال السلطان محمد فى ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، وبايعوه بالسلطنة وكان الأمير أوزبك أول المبايعين له فأقره قانصوه فى منصب الأتابكية الذى كان يشغله، كذلك قام بترقية الأمير طومان باى إلى منصب الدوادارية الكبرى عوضاً عن نفسه وأضاف إليه الوزارة والأستادارية نظراً لكونه المنفذ لمقتل السلطان محمد بن قايتباى الذى أوصل قانصوه إلى كرسى السلطنة.

ولم يكن طومان باى فى حقيقة الأمر راضياً عن سلطنة قانصوه، لأنه طمع فى السلطنة كما طمع سائر أمراء المماليك فيها، ولذلك عمل طومان باى على تولى السلطنة بعد الخلاص من

قلعة قايتباى بالإسكندرية



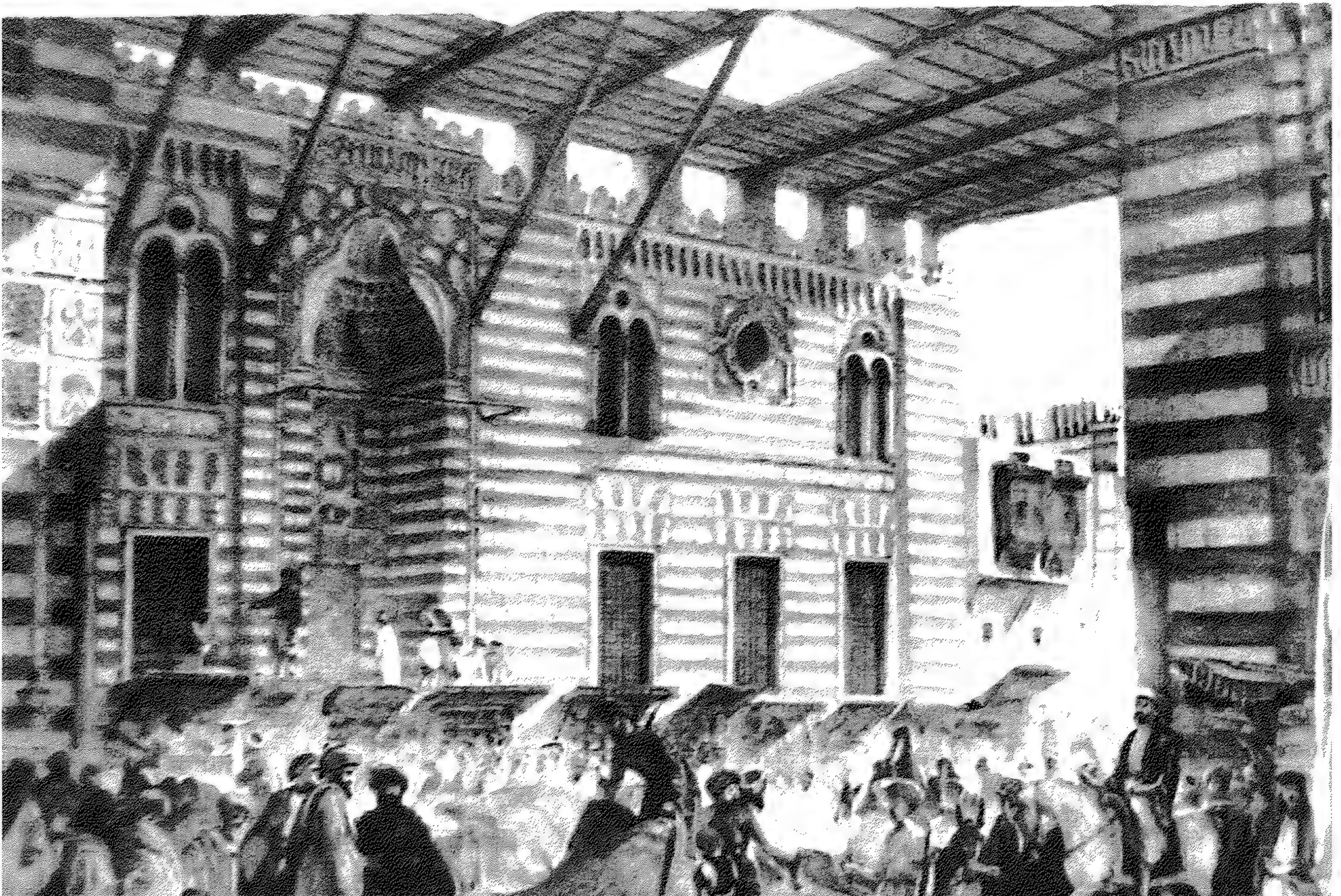


قانسوہ. ولم
يدخر طومان باى
فى ذلك وسعاً
فسرعان ما تحرك
لتنفيد مخططه

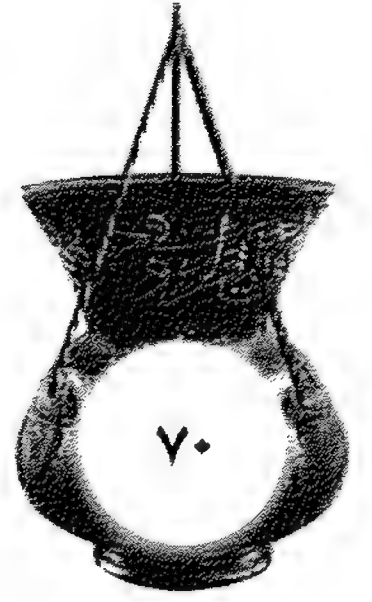
قلعة قايتباى - رشيد

بالتواطؤ مع قصره، نائب الشام، سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م. وقد حاول قانسوہ القبض على طومان
باى حين توجه من شراً، لكنه فشل فى ذلك، فى الوقت الذى نجح فيه طومان باى بمحاصرة

وكالة الغورى - بجوار مسجده ومدرسته



قانسوہ فی القلعة والسيطرة عليها، وقد نجح قانسوہ فی الہرب من الحصار بعد أن تزیا فی زی النساء، وقد كانت سلطنة قانسوہ اسمیة بحته رغم قصرها، ولم یکن له من الأمر شیء، وكان المتصرفون فی أمرها هم أمراء الممالیک الذین أوصلوه إلى العرش.



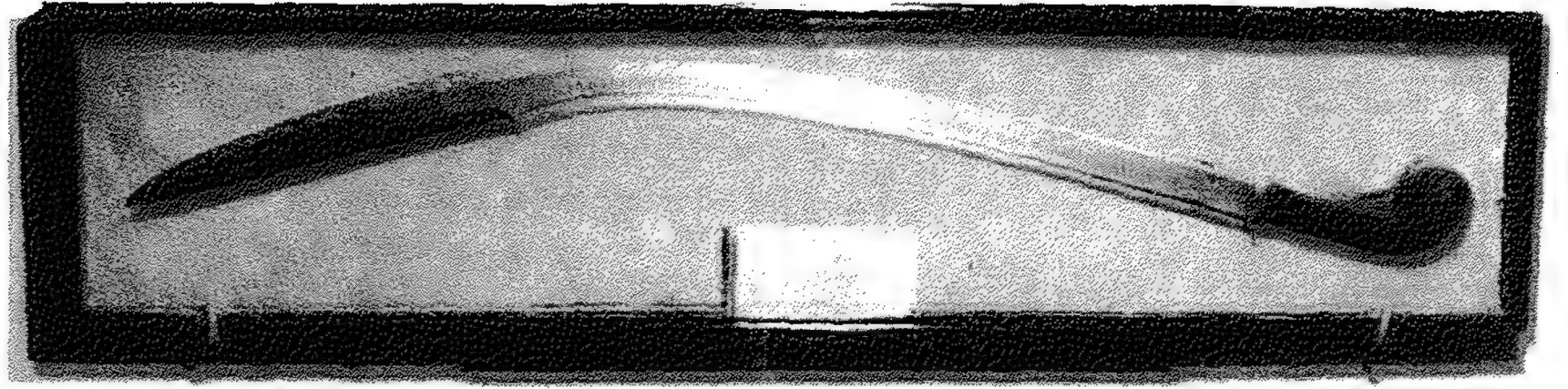
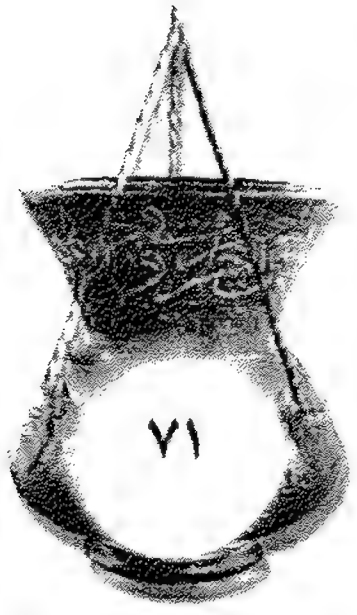
ولقد سنحت الفرصة لطومان باي، بعد هرب قانسوہ، لتولی السلطنة، إلا أنه رأى أن يتمهل وأن یرفع إليها أتابک العساكر الأمير جانبلاط دون أن یرغب أمراء الممالیک فی ذلك. وقد تولی جانبلاط السلطنة فی ذی الحجة سنة ٩٠٥هـ/ أغسطس ١٥٠٠م، وتلقب بالأشرف، وحاول جانبلاط ضم نائب الشام، قصره إلى صفه بتولیته منصب الأتابکیة الذی كان يتولاه هو، لكن نائب الشام رفض ذلك وأعلن نفسه سلطانا على الشام واتخذ لنفسه لقب العادل. وقد كلف جانبلاط طومان باي بالتوجه على رأس جيش إلى الشام لإخضاع قصره، لكن طومان باي حين وصل إلى دمشق تفاوض مع قصره فی عزل جانبلاط عن السلطنة ومبايعته هو بها. وبالفعل تمت مبايعة طومان باي سلطاناً بحضور قضاة الشام فی دمشق وكتابتهم محضراً بخلع جانبلاط وتولية طومان باي وتلقيبه بلقب المؤيد، وذلك فی جمای الآخرة سنة ٩٠٦هـ/ يناير ١٥٠١م. وقد وافق قصره هذه المرة على تولی منصب الأتابکیة، وعلى تولی قانسوہ الغوری منصب الدوادرية الكبرى والمناصب التي كان يتولاها طومان باي نفسه.

وما كان أمام طومان باي إلا أن يعود بجيشه الذی توجه به من الشام إلى مصر ومحاصرة القلعة والقبض على جانبلاط وحبسه ثم خنقه وهو فی السجن، وقد قام الخليفة بالبيعة لطومان باي بالسلطنة ومنحه لقب العادل بدلا من لقب المؤيد.

وقد تخلص طومان باي (الأول) من قصره لتخوفه منه وشكه فی أمره فقبض عليه، حين صعد إليه فی القلعة، وقام بخنقه. وقد خشى أمراء الممالیک المحيطون بالسلطان أن ينزل بهم السلطان ما أنزله بآتابک العساكر قصره، وسرعان ما تجمع الأمراء برئاسة الأمير قانسوہ الغوری للخلاص من السلطان، وأشاعوا أنه یزعم الخلاص منهم وهم فی المسجد يوم عيد الفطر فسارعوا بالهجوم عليه وقتله، وهو لم یکن له من عمر السلطنة سوى ثلاثة شهور فقط.

السلطان الملك الأشرف قانسوہ الغوری (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥١٥م):

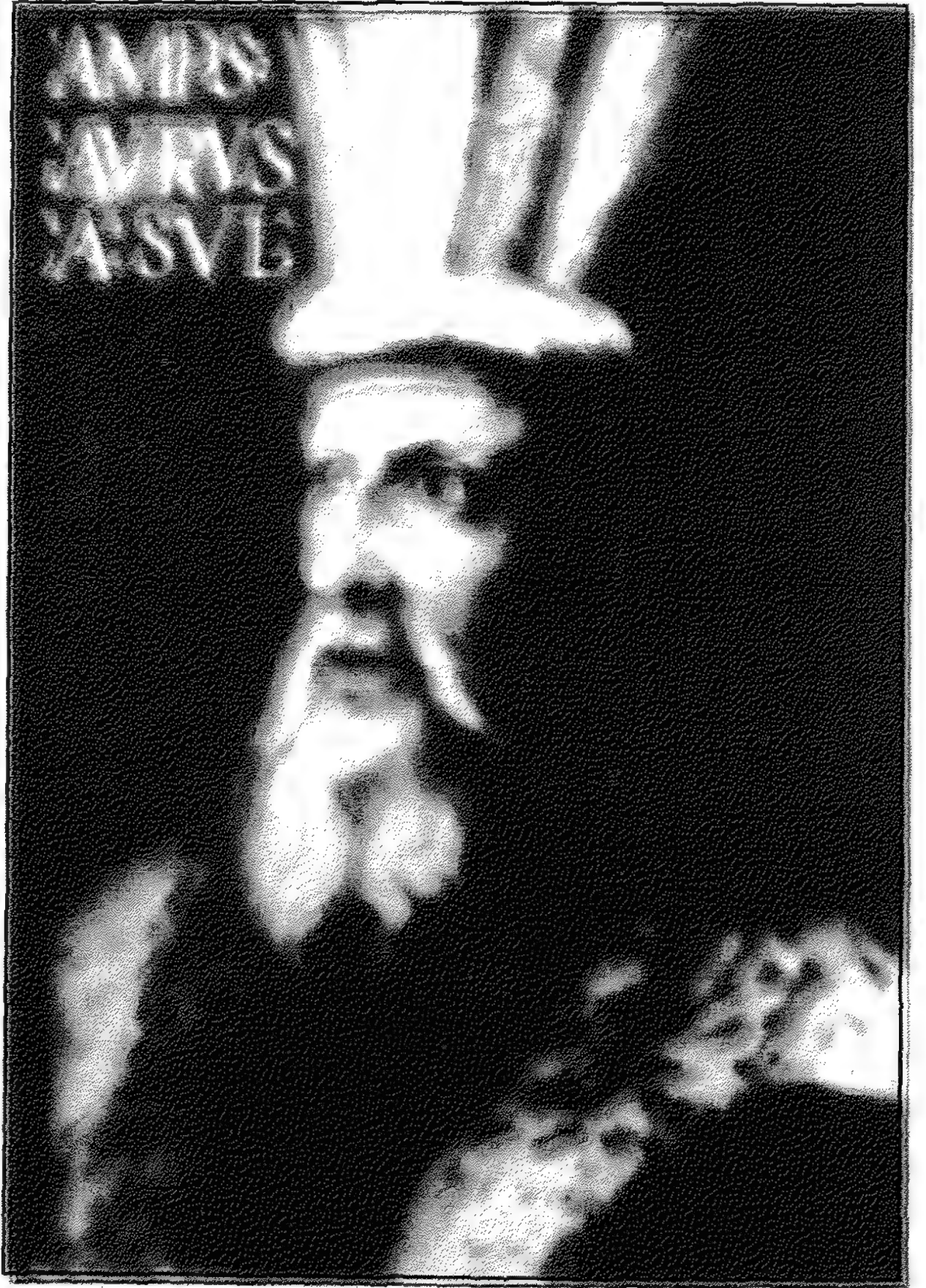
تولی الملك الأشرف قانسوہ الغوری السلطنة فی شهر شوال سنة ٩٠٦هـ/ مايو ١٥٠١م، بعد تردد لأنه كان یخشى مخاطر هذا المنصب آنذاك والنهاية الدموية التي ینتهی إليها كل أمير مملوکی یصبح سلطانا. وقد تهرب معظم أمراء الممالیک من تولی المنصب خوفا على أنفسهم، ثم



سيف السلطان الغورى من الصلب - بالمتحف الإسلامى بالقاهرة

اتفقوا فى نهاية الأمر على تولى الغورى ولم يختاروا الغورى لكفاءته ومقدرته وشدته، ولكنهم اختاروه لما رأوا فيه من لين وطيبة وهى صفات يريدونها فى السلطان حتى يسهل لهم إقالته والإحلال مكانه متى أرادوا. وقبل الغورى المنصب بعد أن تعهد له الأمراء عدم قتله إذا ما قرروا خلعه، ووافق الأمراء على ذلك وتعهدوا له بذلك، وتمت مبايعته بحضور الخليفة والقضاة والأمراء.

لكن الغورى، رغم تجاوزه الستين من العمر، أثبت قوته وصلابة عوده على غير ما رآه الأمراء عليه، فسرعان ما أعاد الأمن والأمان للبلاد والهدوء للقاهرة، وأهمل فى مناصب الدولة من يثق فى حسن أدائه من الأمراء، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية التى أفلست بسببها خزانة الدولة. وقد جاء هذا العلاج على حساب شعب تحمل الكثير من الضرائب والمغارم ولم يشفع للغورى لدى رعاياه المصريين أنه شيد لهم مسجداً ومدرسة فى حى الغورية، المنتسب إلى اسمه، وعنايته بحفر بعض الآبار على طريق الحج إلى الأراضى المقدسة، وبعض الإصلاحات التى قام بها للقلعة وبلدان الإسكندرية ورشيد. ومن المعلوم أن السلطان



السلطان قانصوه الغورى - رسم چتيللى

الغورى قد استكثر من مماليكه بالشراء وصرف الأموال الطائلة على إظهار بلاطه بالفخامة الظاهرة، كما اشتهر بمجالسه الأدبية والعلمية وتقريبه للعلماء والأدباء والشعراء.



هذا ولم تحدث قلاقل وفتن ذات خطورة فى الفترة الأولى من سلطنة الغورى، غير تلك الثورات المألوف حدوثها من جانب المماليك والعربان فى ذلك العصر. وقد نجح الغورى فى التصدى لها قبل استفحالها لكن الخطر الكبير الذى تعرضت له دولة المماليك آنذاك هو خطر البرتغاليين وخطر العثمانيين. وكانت مصر المملوكية بحكم تحكمها فى طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب، طريق البحر الأحمر، تحصل رسوماً كثيرة على السفن المارة عبر هذا الطريق والسلع التى تحملها هذه السفن وبخاصة سلع الشرق الغنية من توابل وجواهر ورقيق. وقد فرض سلاطين المماليك الجراكسة، بداية من برسباى سياسة احتكارية للتوابل وتحكموا وزادوا فى أسعارها، حتى صار ثمن هذه السلعة يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلاد الهند والصين، وقد ضاق التجار والمستهلكون الأوروبيون بذلك الوضع، فبدأت الجهود الأوروبية تبذل لاكتشاف طريق آخر للتجارة مع بلدان الشرق الأقصى غير الطريق الذى يتحكم المماليك فيه، هذا فضلاً عن وجود دافع آخر جديد حفز رجال الغرب بالبحث عن طريق بديل وهو الدافع الصليبي الذى استخدمه الصليبيون كسلاح جديد لحرب المسلمين، وهو السلاح الاقتصادى الذى هو أساس دعم السلاح العسكرى. فبحرمان مصر المملوكية من عائد المرور فى طريق البحر الأحمر، سستحول التجارة إلى طريق آخر جديد فيتأثر اقتصادها ويضرب فى الصميم، وتفقد مصر المملوكية بالتالى الدعم المالى الذى هو دعم عسكرى، فبدون المال لن يتوفر

السلاح والعتاد للمسلمين فينهزموا فى الجولة الثانية من جولات الحروب الصليبية والصراع بين الشرق والغرب.

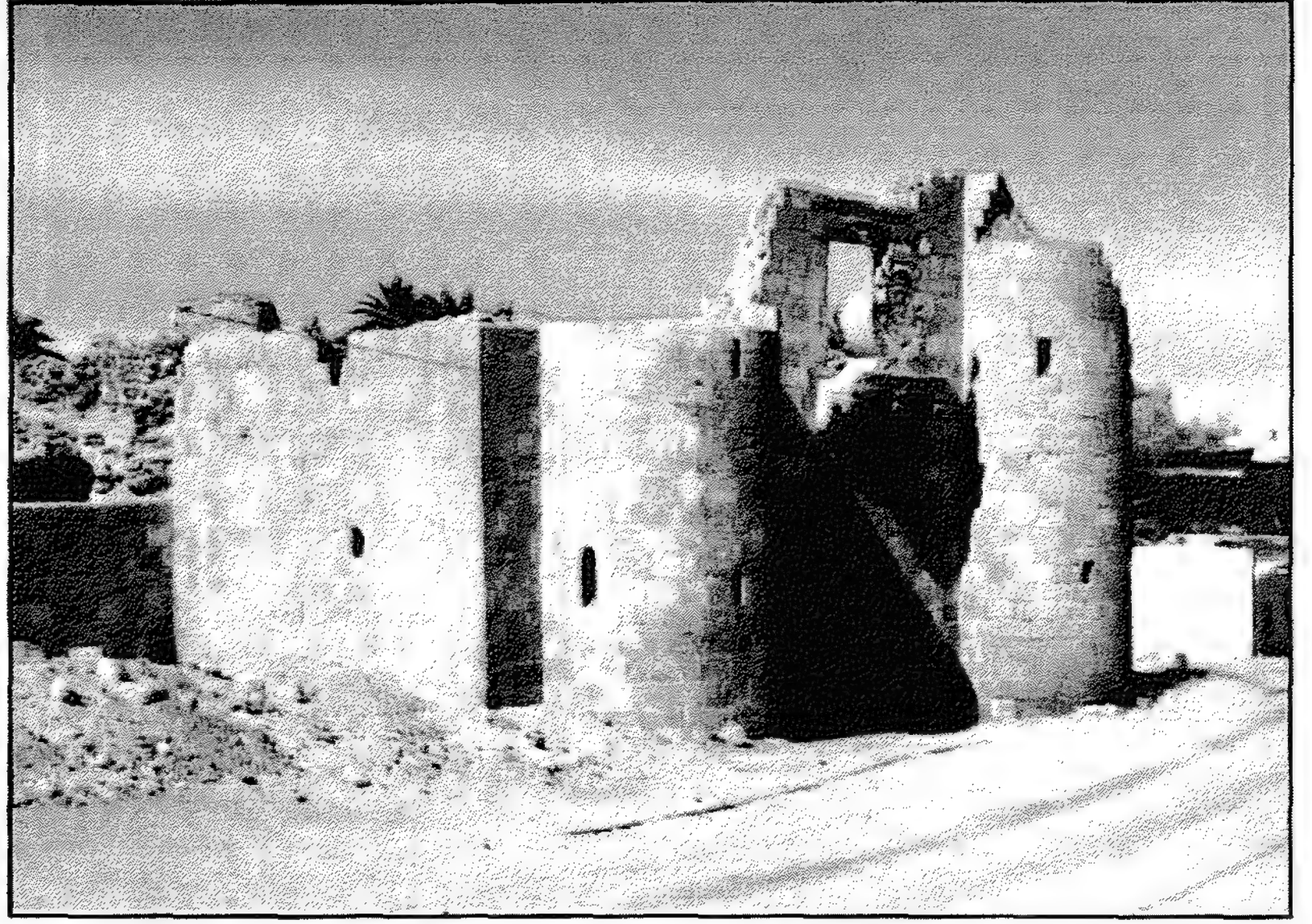
ولقد نجح البرتغاليون بقيادة بارثلميو دياز سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م فى كشف

لوحة باسم قانصوه الغورى على باب قلعة قايتباى بالإسكندرية





طريق رأس الرجاء
الصالح، وأعقبه
فاسكو داجاما الذى
تمكن من الوصول
إلى الهند عن طريق
الطواف حول إفريقيا



قلعة العقبة التى بناها قنصوه الغورى - الأردن

سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، وبذلك نجح
البرتغاليون فى تحقيق لأوربا الهدفين
الاقتصادى والصليبي معاً، وأصبحت الدولة
المملوكية فى عهد حكم الغورى بضربة فى
الصميم جعلتها تترنح وتفكر فى الوصول
إلى حل يعيد الأمور إلى نصابها. ولم يكن
أمام الغورى إلا التصدى بالقوة للبرتغاليين
لوقف التعامل مع الطريق الجديد، فأعد
الغورى حملة بحرية كبرى وأرسلها إلى
البحر الأحمر سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م، بقيادة
نائب جده، حسين الكردي، وقد لقي
الأسطول المصرى هزيمة كبيرة وتحطمت
معظم سفنه فى مياه المحيط الهندى سنة
٩١٥هـ / ١٥٠٩م فى موقعة ديو البحرية.

هذا عن خطر البرتغاليين، أما خطر
العثمانيين، فقد ساءت العلاقات بين الدولة



السلطان سليم الأول العثماني



العثمانية الفتية ودولة المماليك، حين قنعت الدولة العثمانية بما حققته من فتوح في بلاد آسيا الصغرى والبلقان واتجهت بفتوحها نحو بلاد الشرق، وتدخلت في شؤون إمارات آسيا الصغرى، وبخاصة إمارتي قرمان ودلغارى التركمانيتين، وهما مشمولتان بحماية سلطنة المماليك، واعتمدت عليهما هذه السلطنة في شؤون الأمن والدفاع عن مصالحها في شمال الشام والعراق.

ولقد وقع الصدام الفعلى بين المماليك والعثمانيين في عصر السلطان العثماني سليم الأول من ناحية والسلطان المملوكي قانصوه الغورى من ناحية أخرى، حين قضى السلطان سليم سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م على إمارة دلغادر التركمانية التي كانت تتمتع بحماية المماليك، مما جعل الصُدام بين الدولتين أمراً محتوماً.

ولقد توجس الغورى خيفة من قرب هجوم العثمانيين على الأراضي المصرية بعد أن هاجموا الولايات التركمانية الواقعة على حدود الممتلكات المصرية.

وقد استعد الغورى لحرب العثمانيين، فجهز جيشه وسار على رأسه متوجهاً إلى حلب بعد أن أناب عنه في مصر الأمير طومان باى. ووقعت بين الجيشين معركة حاسمة عند مرج دابق، شمالي حلب، وكادت نتيجة اللقاء تصبح لصالح القوات المصرية لولا خيانة خير بك نائب حلب، الذى انسحب بقواته من ميدان القتال وإشاعته بين الجنود مقتل السلطان الغورى في المعركة، وقد أدى ذلك إلى وقوع البلبلة بين المصريين وتفرق صفوف المقاتلين في قوات المماليك وانهيار مقاومتهم.

ولم يتحمل الغورى الصدمة لكبر سنه، فسقط مغشياً عليه من على فرسه وتوفى في ساعته وضاعت جثته بين القتلى ولم يُعثر عليها.

ولقد اختار أمراء المماليك الأمير طومان باى سلطاناً على البلاد سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، وقام طومان باى بتجهيز قواته داخل القاهرة لمحاربة العثمانيين ووقف تقدمهم نحو مصر، وكان طومان باى قائداً شجاعاً مقداماً لم يهتز لانتصار العثمانيين ولم يتأثر بالهزيمة التي وقعت لجيش الغورى، وكان شديد الثقة بإمكانية إحراز النصر عليهم.

وطلب طومان باى من أمراء المماليك أن يتجهزوا مع جنودهم للذهاب إلى الشام لملاقاة العثمانيين هناك وتخليص بلاد الشام من أيديهم، إلا أن هؤلاء القواد الأمراء تخاذلوا بعد أن ملوا القتال وأعلنوا عدم مقدرتهم عليه، فما كان من طومان باى إلا أن جمع صبيانه ومماليكه وعامة

الشعب المصرى لمواجهة العثمانيين، وخرج بهذا الجمع إلى منطقة الريدانية للتصدي للحشود العثمانية الزاحفة.

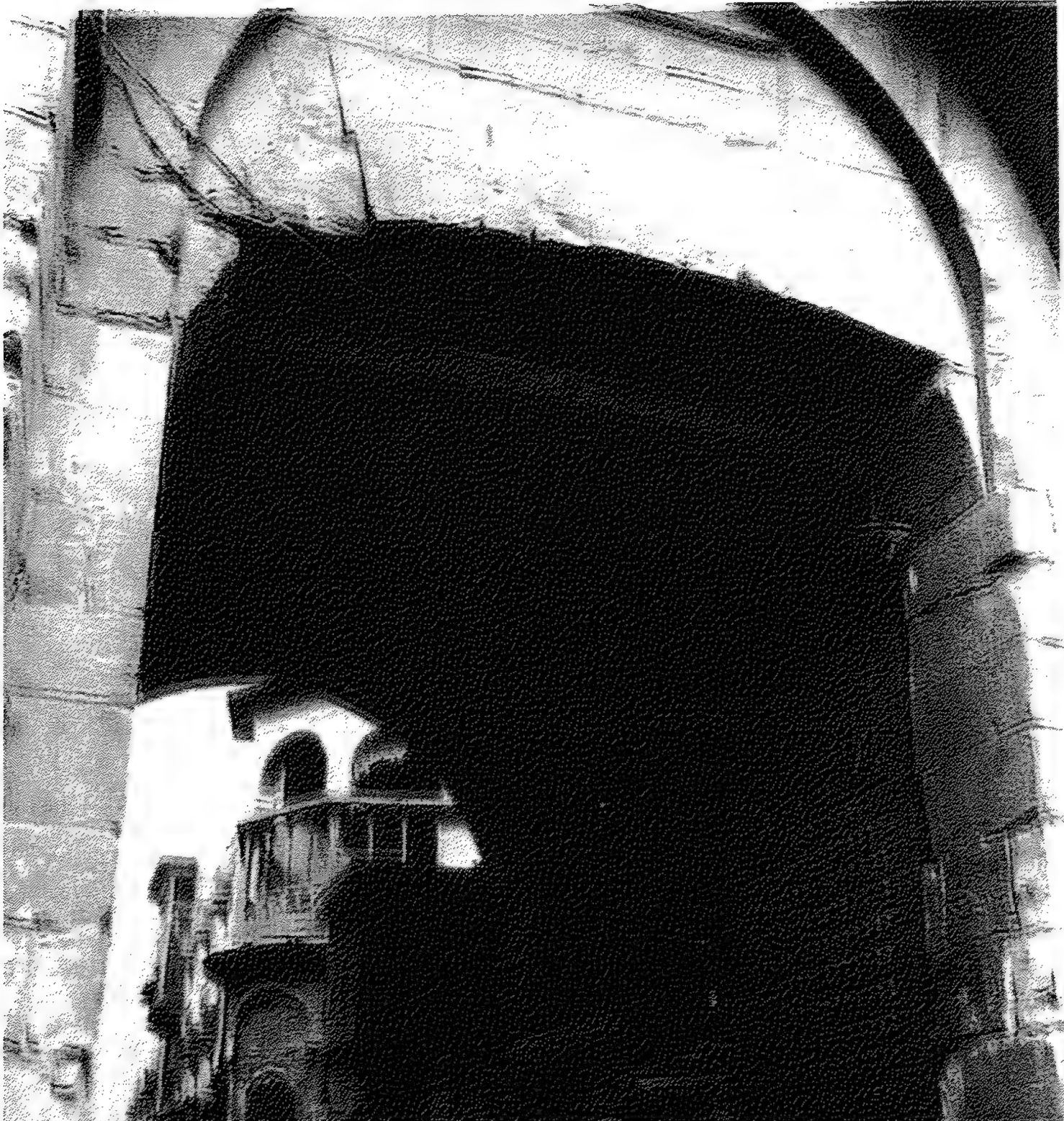


وعند الريدانية التقى الجيشان غير المتكافئين، فهُزمت قوات طومان باى ، إلا أن طومان باى انسحب بما تبقى لديه من هذه القوات داخل القاهرة للدفاع عنها وإخراج القوات العثمانية منها، بعد أن دخلتها هذه القوات، وقد نجح طومان باى فى ذلك، لكن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة القوات المصرية وانهيار مقاومتها أمام العثمانيين، ذلك لأن طومان باى فوجئ بخيانة البدو ومهاجمتهم لمؤخرة جيشه على ضفاف النيل بالجيزة؛ الأمر الذى أوقع القوات المصرية بين شقى الرحى، فاضطر طومان باى للانسحاب بما تبقى له من قواته إلى منطقة وردان بالجيزة، حيث دارت هنالك معركة قصيرة سريعة انتصر العثمانيون فيها، واضطر طومان باى إلى الهرب، بعد أن بذل كل ما فى جعبته، إلى أحد شيوخ الأعراب بمنطقة البحيرة طالباً حمايته، كانت لطومان باى أفضال عليه، إلا أن هذا الشيخ غدر بطومان باى وقام بتسليمه للعثمانيين الذين لم يتورعوا عن شنقه وتعليقه على باب زويلة فى ٢٣ ربيع أول ٩٢٣هـ / ١٥ أبريل ١٥١٧م إعلاناً لهزيمة دولة سلاطين المماليك وسقوطها فى يد العثمانيين.

وباستيلاء العثمانيين على مصر، تحولت مصر من دار خلافة إلى ولاية تابعة للدولة العثمانية، وانتقلت الخلافة من عاصمتها القاهرة إلى القسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية بعد أن صار حكام وسلاطين العثمانيين خلفاء يجمعون بين الخلافة والسلطنة. وبهذه التبعية المصرية للدولة العثمانية ينتهى عصر سلاطين المماليك، وتدخل مصر التاريخ الحديث فى دور جديد من أدوار حكمها يختلف تمامًا عن الأدوار التى مرت بها وغطت أحداثها القرون التسعة السالفة.

باب زويلة الذى شُنق عليه

طومان باى



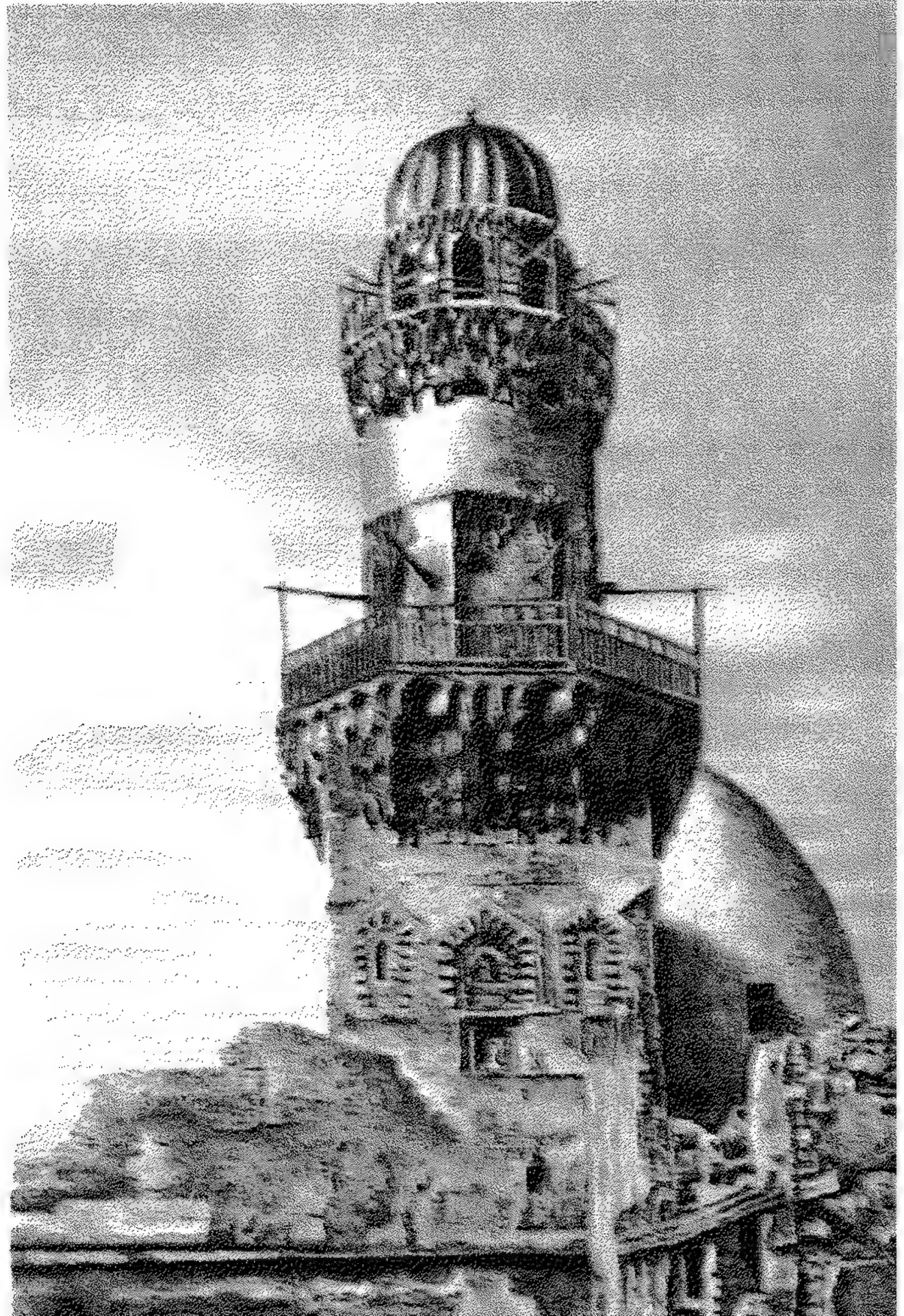
الفصل الثالث أهم الآثار المعمارية الباقية من عصر سلاطين المماليك



منشآت السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى :

جامع الظاهر :

وهو أقدم مساجد المماليك، بناه السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، وأشرف على بنائه الأمير علم الدين سنجر المسرورى متولى القاهرة، وقد أمر بيبرس أن يدفن فى هذا المسجد، وهو باق حتى الآن فى ميدان الظاهر بالعباسية. طوله ١٠٨ مترا وعرضه ١٠٥ مترا، وهو يتكون من صحن يحيط به أربعة إيوانات: القبلى ويتكون من ستة أروقه، وكل من الإيوانين الشرقى والغربى يتكون من ثلاثة أروقة ويتكون الإيوان البحرى من رواقين وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة رخامية، وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر وكانت للمسجد مئذنة هدمها الفرنسيون أثناء حملتهم على مصر سنة ١٧٩٨م، وقد قامت مصلحة الآثار بترميمه سنة ١٩١٨م.





منشآت الملك المنصور سيف الدين قلاوون :

المارستان (المستشفى) والمدرسة والتربة :

أنشأ السلطان المنصور قلاوون في شارع بين القصرين ، مجموعة عظيمة من المباني تتألف من مارستان ومدرسة وتربة ، غلب عليها اسم مارستان قلاوون ، وقد أشرف على البناء الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ولا تزال بقايا هذا المارستان باقية ، والباقي منه جزءان من القاعتين الشرقية والغربية وجانب كبير من القاعة القبليّة . ويشغل مساحة كبيرة منه فى الوقت الحالى مستشفى قلاوون للرمم وينقسم البناء إلى قسمين : قبلى وهو واجهة المدرسة ، وبحرى وهو واجهة التربة التى يعلوها القبة وتوجد المئذنة فى نهاية القسم البحرى وأمام القبة وقاعتها توجد المدرسة بمحرابها البديع وبقايا زخارفها الحصية المتقنة ، ويوجد بجزء من واجهة المدرسة سبيل صغير أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على روح والده .

منشآت السلطان الناصر محمد بن

قلاوون :

أهم منشآت الناصر : مدرسته بالنحاسين ، وخانقاه بالجمالية ، ومسجده بالقلعة ، ومسجد بالدرب الأحمر ، وسراى بشارع بين القصرين .

مدرسة الناصر محمد بشارع بين

القصرين :

وهى ملاصقة لقبة السلطان قلاوون بشارع المعز لدين الله ، وضع أساسها السلطان الملك العادل زين الدين

تصوير لفارس مملوكى -

الأسلوب المملوكى





كتبغا المنصوري سنة
٦٩٥هـ / ١٢٩٥م ولم
يتم بناءها، فأكمل
بناءها السلطان الناصر
محمد بن قلاوون أيام
سلطنته الثانية سنة



٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ولم يبق من هذه
المدرسة الآن سوى الإيوان الشرقي وبه
محراب جصى نادر المثل وبه شباك من
الجص غاية في الدقة.

مسجد الناصر بالقلعة :

مسجد ومدرسة السلطان قلاوون

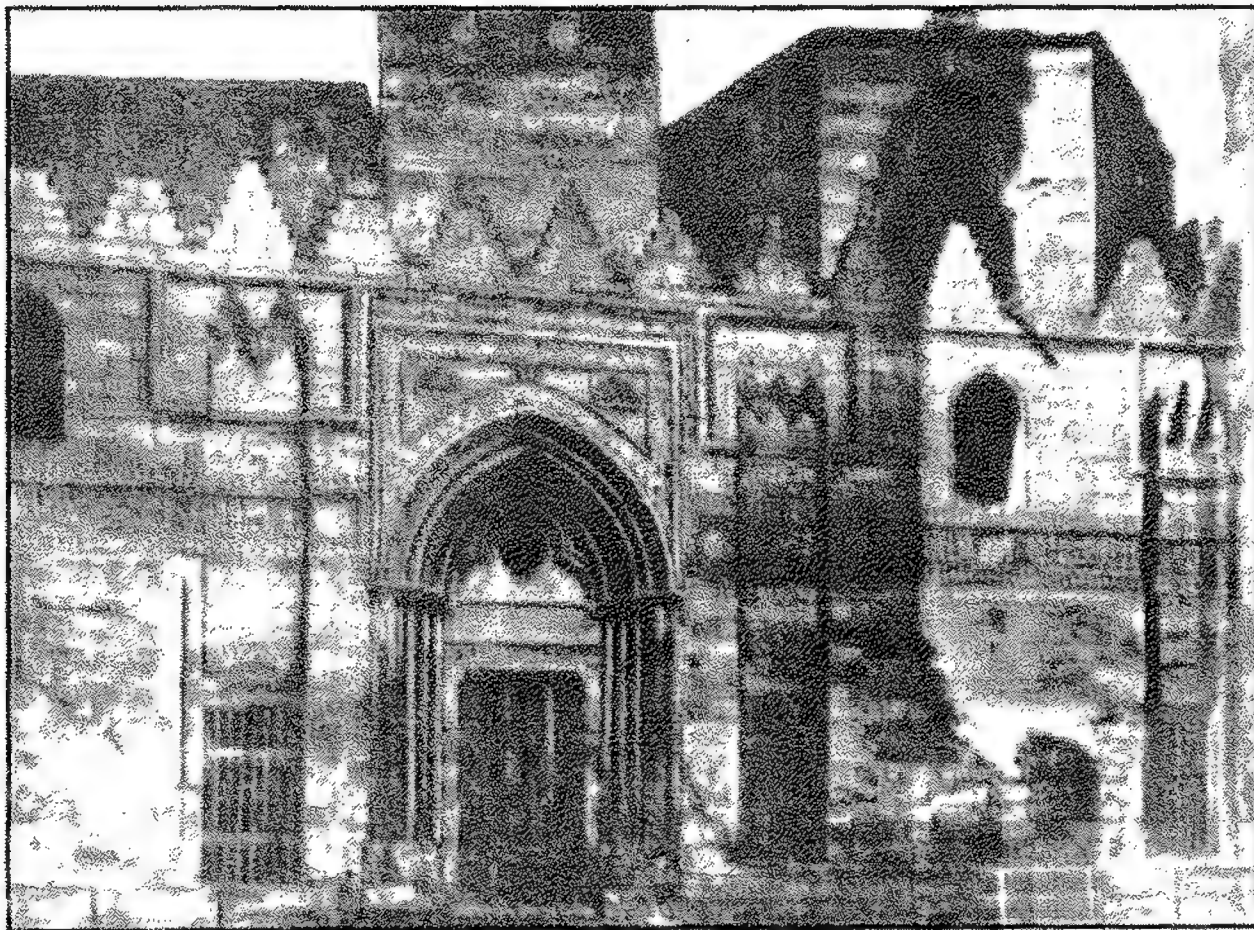
أنشأ الناصر سنة ٧١٨هـ /

١٣١٨م، وأعاد بناءه سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م وهو من المساجد الكبيرة، أقيم على نظام بناء المساجد
القديمة من أربعة إيوانات تحيط بالصحن المكشوف، وأكبرها إيوان القبلة ويوجد أمام محراب هذا
المسجد قبة كبيرة محمولة على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر، وللمسجد مئذنتان وبابان،
أحدهما غربى تجاوره المئذنة الأولى، وهى أسطوانية الشكل، والباب الآخر بالواجهة البحرية وفى
نهايتها المئذنة الثانية وهى مربعة القاعدة.

منشآت السلطان حسن بن

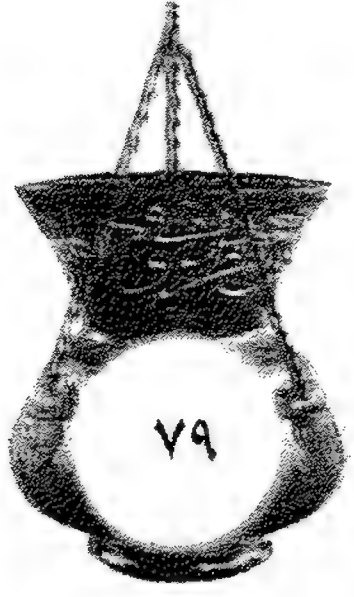
محمد بن قلاوون :

مسجد أو مدرسة السلطان حسن :



يقع هذا المسجد بميدان صلاح
الدين، فى الجهة البحرية من
القلعة، أنشأه السلطان حسن بن
الناصر محمد بن قلاوون، وقد تم
بناؤه فى الفترة من ٧٥٧هـ حتى

مدرسة ومسجد الناصر محمد بن قلاوون



٧٦٢هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦١م، وتبلغ مساحته ٧٩٠٦ مترات مربعة وطوله ١٥٠ متراً وعرضه ٦٨ متراً، وواجهته البحرية، وهى الواجهة الأصلية، مشرفة على شارع القلعة (شارع محمد على) وواجهته الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين وتخطيط هذا المسجد من الطراز المملوكى له أربعة إيوانات متعامدة يتوسطها الصحن المكشوف تتوسطه مiazza تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام وهذا المسجد أضخم مساجد مصر عمارة وأعلاها بنياناً وأكثرها فخامة وأحسنها شكلاً وأجمعها لمحاسن العمارة ويتميز هذا المسجد بقبته الكبيرة التى لم يُبن مثلها فى أى من بلاد العالم الإسلامى، فضلاً عن منبره المصنوع من الرخام الخالص.



مسجد ومدرسة
السلطان حسن

منشآت السلطان الظاهر برقوق :

مسجد السلطان برقوق بالنحاسين :



أنشأ السلطان برقوق هذا المسجد سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م، في الجهة البحرية لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون، ولهذا المسجد مئذنة ضخمة، وللباب العمومي لهذا المسجد ضلفتان من الخشب مصفحتان بالنحاس المكفت بالفضة، ويؤدي إلى طريقة توصل إلى الصحن الذي تحيط به أربعة إيوانات متعامدة أكبرها إيوان القبلة ومحراب المسجد مكسو بالرخام المتعدد الألوان والمحلى بفصوص من الصدف.



مسجد الظاهر برقوق

تربة برقوق بمقابر المماليك بالقرافة الشرقية:

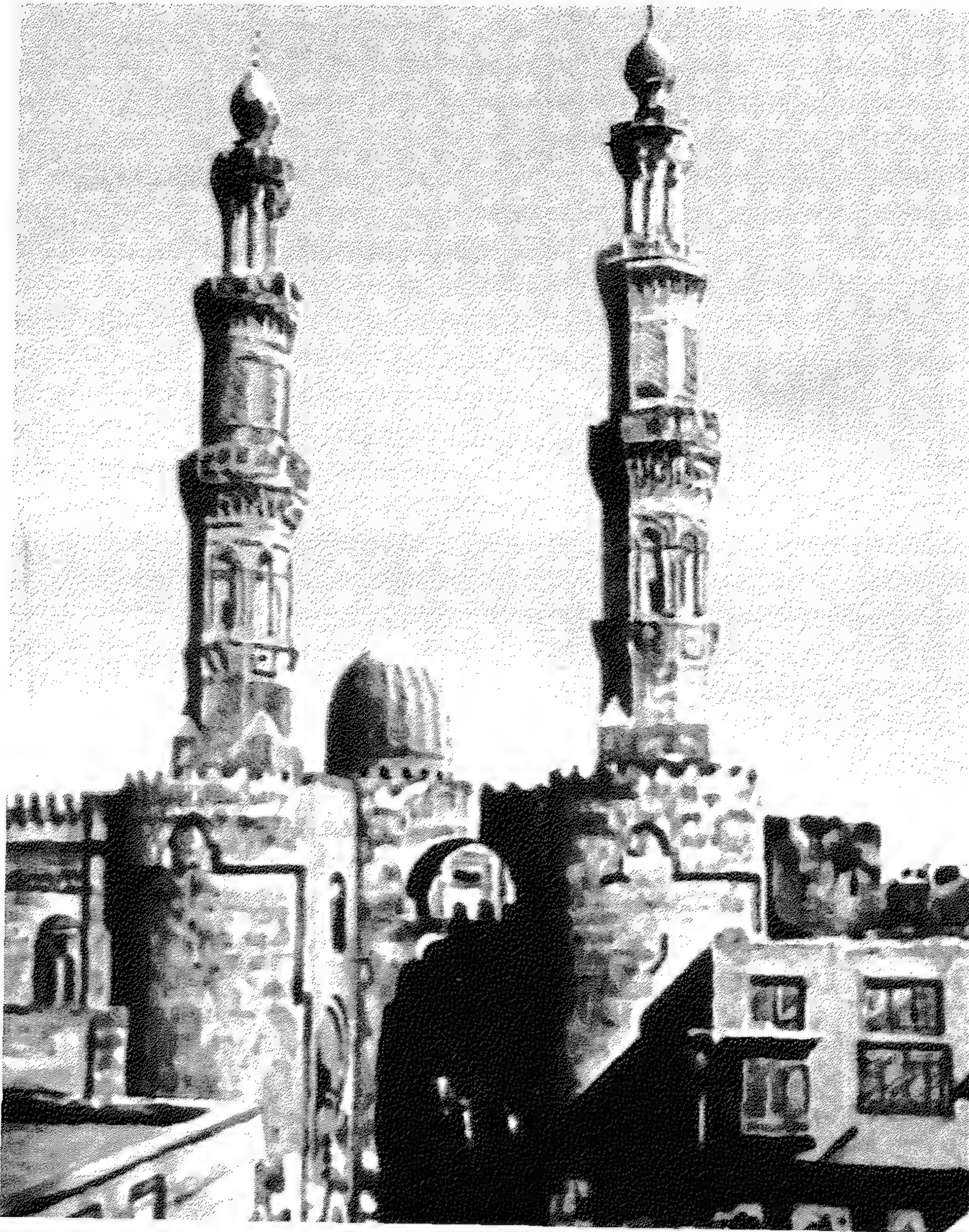


وهى فى الواقع مدرسة أنشأها برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م، بالقرافة الشرقية، وهى أيضاً مسجد للصلاة، وخانقاة للصوفية، جمعها السلطان برقوق فى مكان واحد؛ لذلك جاءت أضخم تربة وُجدت فى جميع جبانات مصر والقاهرة.

جامع المؤيد :

وهو جامع كبير بناه السلطان المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٨ - ٨٢٣هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٠م، بجوار باب زويلة، ومدخله موجود فى الطرف البحرى للواجهة الشرقية وبابه مكسو

بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة. وقد تهدمت ثلاثة من أواوين هذا المسجد ولم يبق سوى الإيوان الشرقى الذى يكسو جزء من جدرانه وزررة من الرخام المختلف الألوان. وبجوار المحراب يوجد منبر خشواته مجمعة على هيئة أشكال هندسية، ومينارتا هذا الجامع قائمتان على بدنتى باب زويلة.



مسجد المؤيد شيخ
المحمودى

تربة الأشرف قايتباى بصحراء قايتباى بالقرافة الشرقية؛



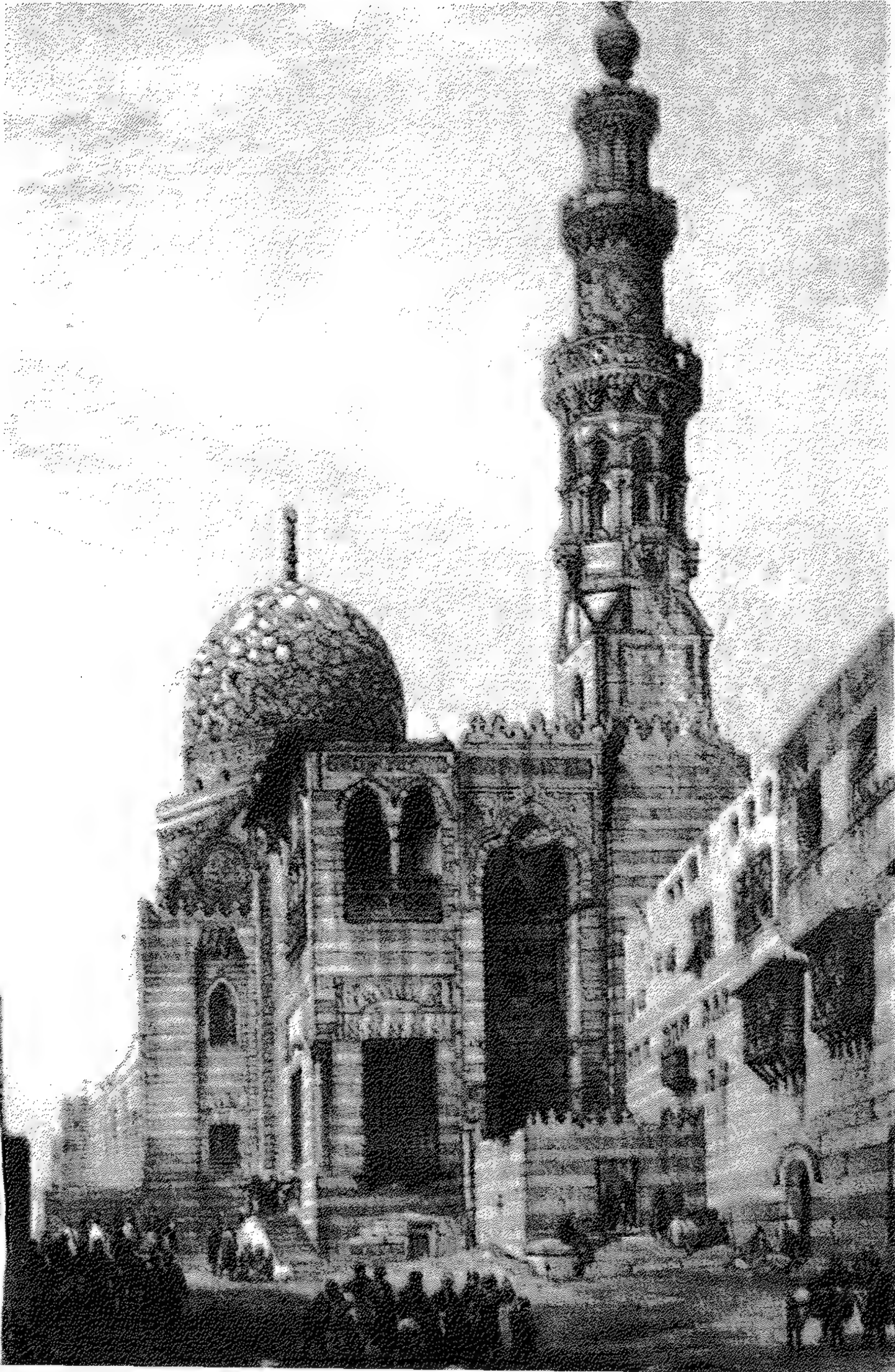
وهذه التربة فى الواقع مجموعة نادرة من المباني بديعة التصميم متناسقة المباني، بها زخارف جمالية بديعة، توجد بمقابر الممالك، وهى تتكون من مدرسة وملحقاتها، وتربة، وسبيل، وكُتاب، أقامها السلطان الأشرف قايتباى فى الفترة ما بين سنوات ٨٧٧-٨٧٩ هـ / ١٤٧٢-١٤٧٤ م. ويوجد مدخل

هذه المجموعة فى الواجهة البحرية.

مسجد (مدرسة) الغورى؛

يوجد هذا المسجد بشارع الغورية، فى مواجهة منشآت الغورى الأخرى وهى: المدفن والخانقاه والمكتب، ويفصل بينهما شارع الغورية، وكان إنشاؤه سنة ٩٠٩ - ٩١٠ هـ / ١٥٠٣ م، وهو يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات أكبرها الإيوان الشرقى يغطيها جميعها سقف ذو نقوش مموهة بالذهب، وأرضية الصحن والإيوانات مغطاة بالرخام المتعدد الألوان البديع الصنع، ومدخل المدرسة فى الواجهة الشرقية.

جامع السلطان قايتباى



- القصور والقلاع :

- قصر بشتاك الناصرى :

من أهم القصور المملوكية المتبقية حتى الآن : قصر بشتاك الناصرى (سيف الدين) الذى كان أميراً مقرباً من الملك الناصر محمد بن قلاوون .

بُنِى هذا القصر سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م ، وهو يشرف من أعلاه على

القاهرة والقلعة والنيل والبساتين ، ولم يتبق من هذا القصر سوى قاعة جميلة ذات سقف ونافورة متصلة بجامع السلطان حسن ، ومدخل حمام القصر المكسو بالرخام الملون .



جامع السلطان الغورى

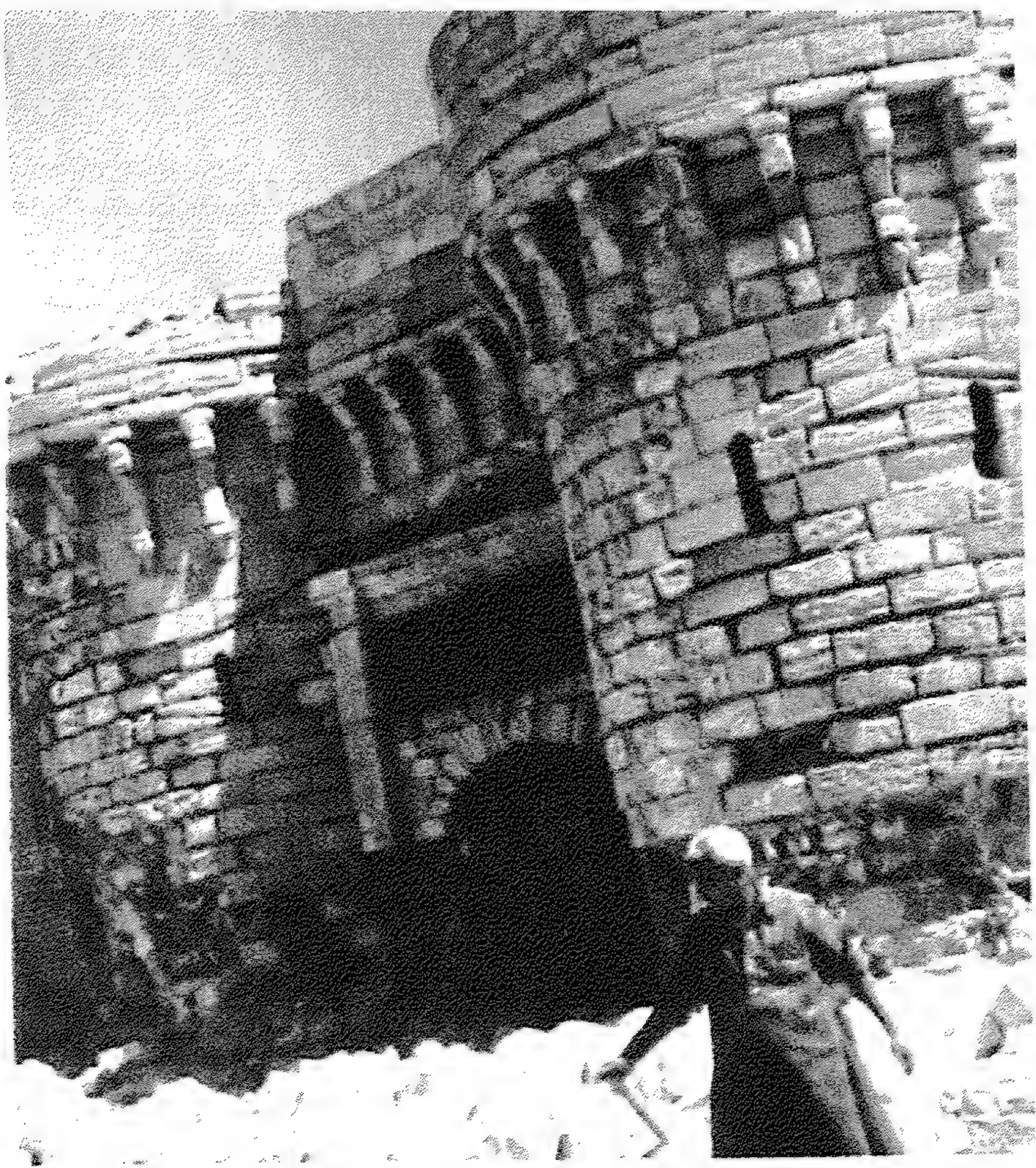
الباب الرئيسى لقلعة قايتباى بالإسكندرية

- قصر قوصون، القائم
بقايا منه خلف مسجد
السلطان الناصر
حسن.

- وأهم القلاع المتبقية
من العصر المملوكى
هما: قلعة قايتباى
بالإسكندرية وقلعته
برشيد.

- الخانات :

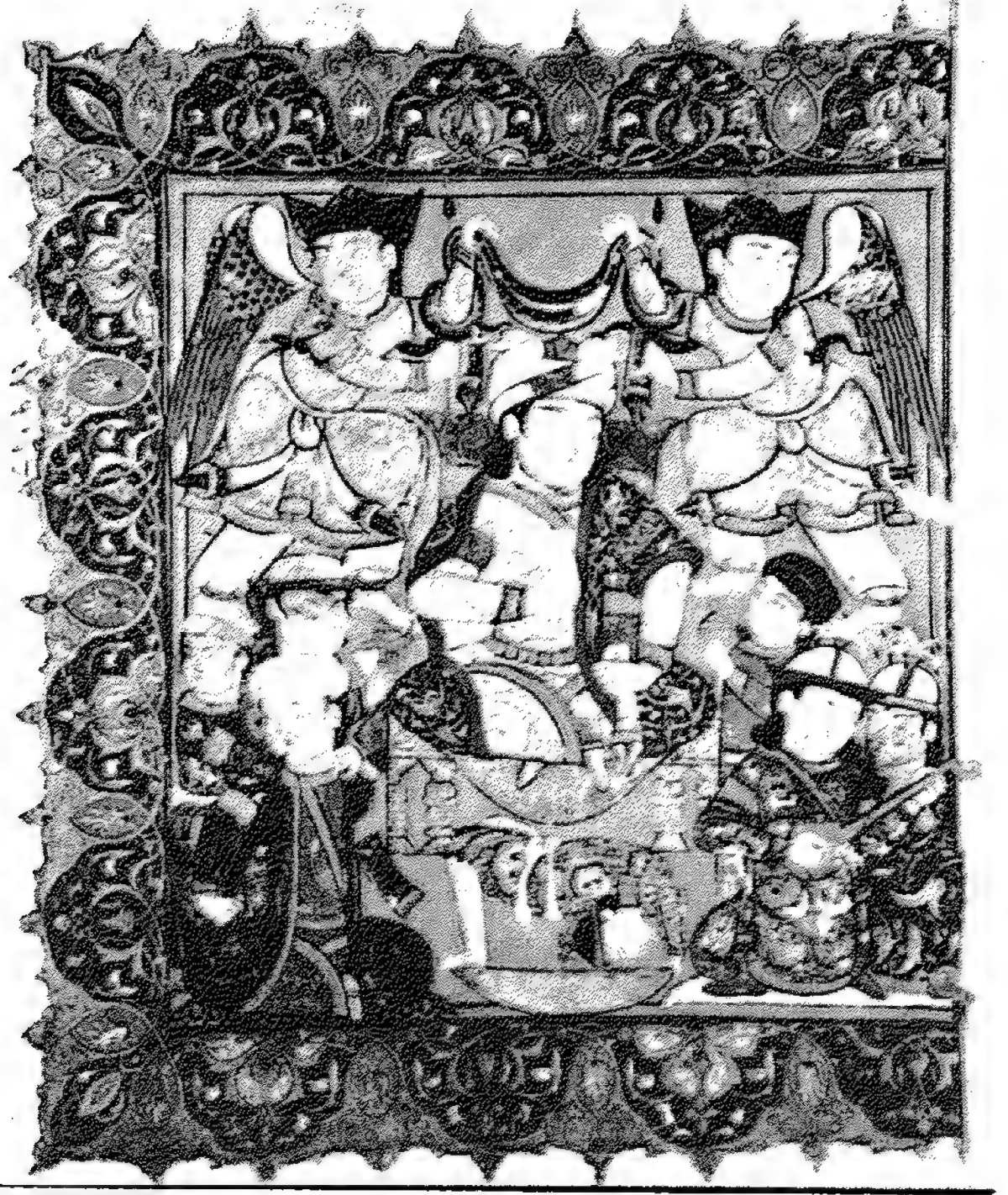
- خان الخليلي :
وينسب إلى سيف
الدين جهاركس الخليلي،
أمير آخور للسلطان الظاهر
برقوق، وأحد أمراء
المماليك، عاش فى النصف
الثانى من القرن الثامن
الهجرى/ الرابع عشر
الميلادى، وقد بناه الخليلي
لراحة التجار وتخزين
بضائعهم وعرضها للناس
فيه.



مدخل خان الخليلي - رسم من القرن ١٨



فن التصوير المملوكى -
صفحة من مقامات الحريرى
سنة ١٣٣٤ م



- الأسيلة:

- سبيل السلطان قايتباى، قرب
مسجد السيدة زينب، بناه السلطان
قايتباى سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م.

سبيل القاضى عبد الباسط

(سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م)

التحف الفنية الباقية من

عصر سلاطين المماليك



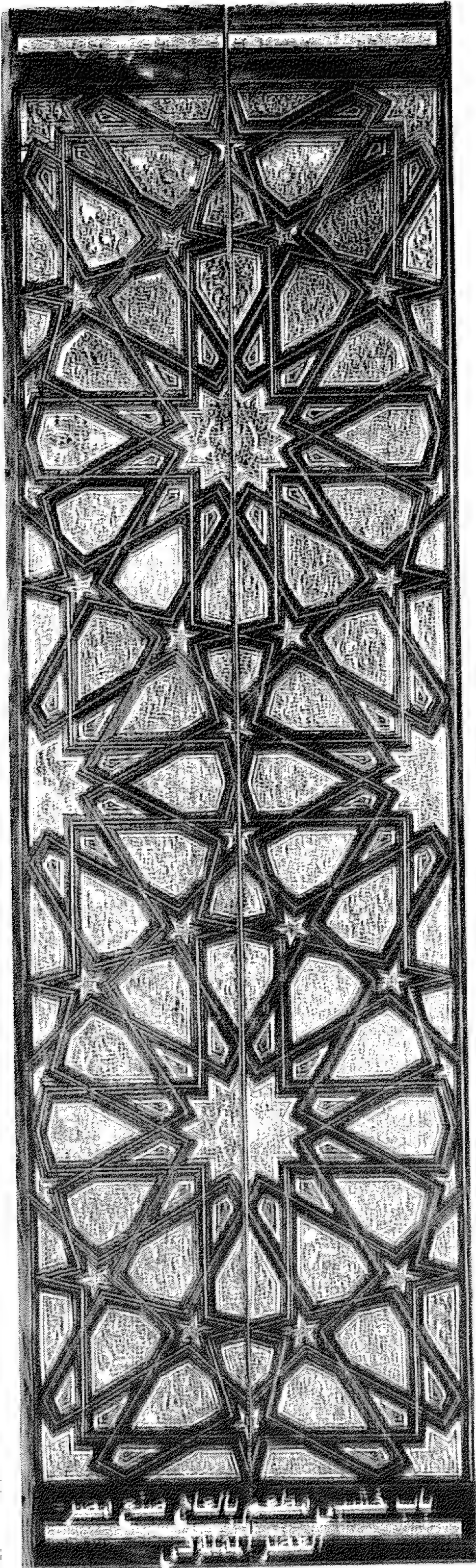
ازدهرت الفنون الإسلامية
فى عصر سلاطين المماليك،
وغصت قصورهم وبيوتهم
بالتحف الثمينة من خشبية وخزفية وزجاجية وبلورية
وعاجية ومعدنية، وفرشت بالطنافس والأبسطة
والرياش الثمينة.

وقد وصلت لأيدينا نماذج كثيرة من كل ذلك
محفوظة الآن فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة،
نأتى على وصف نماذج من تلك التحف.

- التحف الخشبية :-

اشتملت التحف الخشبية فى العصر المملوكى
على المنابر والكراسى والمقاعد والمشربيات والسقوف
والأبواب والصناديق، وتمتاز كل هذه التحف
بالأشكال الهندسية البديعة المحفور عليها.

ويوجد فى المتحف الإسلامى بالقاهرة نماذج
كثيرة لكل هذه الأنواع من أجملها الكرسى
المستحضر من مسجد السلطان الأشرف شعبان
(٧٧٠هـ / ١٣٦٣م) وهو على شكل منشور
سداسى من خشب تركى مكسو بالفسيفساء الدقيقة
من السن والأبنوس. وكانت أمثال هذا الكرسى
تستعمل فى قصور سلاطين المماليك لوضع موائد
الطعام عليها، كذلك كانت تُستخدم فى المساجد
لوضع الشموع التى توقد ليلا عند الصلاة، بجانب
المحراب.



باب خشبى بطعم بالقاهرة صنع فى مصر

المتحف الإسلامى



وشهد عصر المماليك ازدهار صناعة المشربيات المصنوعة من الخشب
الخرط الدقيق الصنع، وتوجد نماذج منها فى بيوت القاهرة القديمة التى ترجع
إلى العصر المملوكى.



حشوة خشبية مزخرفة بالوحدات الإسلامية

- التحف النحاسية :



شهد عصر المماليك تطوراً كبيراً فى تصنيع التحف النحاسية المكفّنة بالذهب والفضة، وكان القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى العصر الذهبى لذلك النوع من التحف. وبالمتحف الإسلامى بالقاهرة مجموعة كبيرة من تلك الأواني التى ترجع إلى ذلك القرن، بمختلف أنواعها من صوان وكراسى وشمعدانات ومقالم وشبابيك وأبواب، ومن أجمل هذه التحف كرسىان من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون مصنوعان من النحاس المخرم والمنقوش، ويحمل أحدهما اسم صانعه وهو محمد بن سنقر البغدادى، وتاريخ صنعه سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م فى عهد الناصر محمد بن قلاوون.

ومن أجمل الشمعدانات المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة شمعدان صُنع بأمر السلطان قايتباى سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م ليُهدى إلى الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة.

ومن أجمل المقالم مقلمة من النحاس مكفّنة بالذهب والفضة باسم السلطان الملك المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م.

ومن أجمل التناير (الأفران) النحاسية تنور باسم السلطان حسن مؤرخ سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م على شكل منشور مثنى وفوق التنور قبة صغيرة وهلال.

ولا تزال مساجد كثيرة من مساجد المماليك تحتفظ بشبابيكها وأبوابها المكفّنة كأبواب جامع السلطان حسن ومصرعى باب جامع السلطان برقوق.

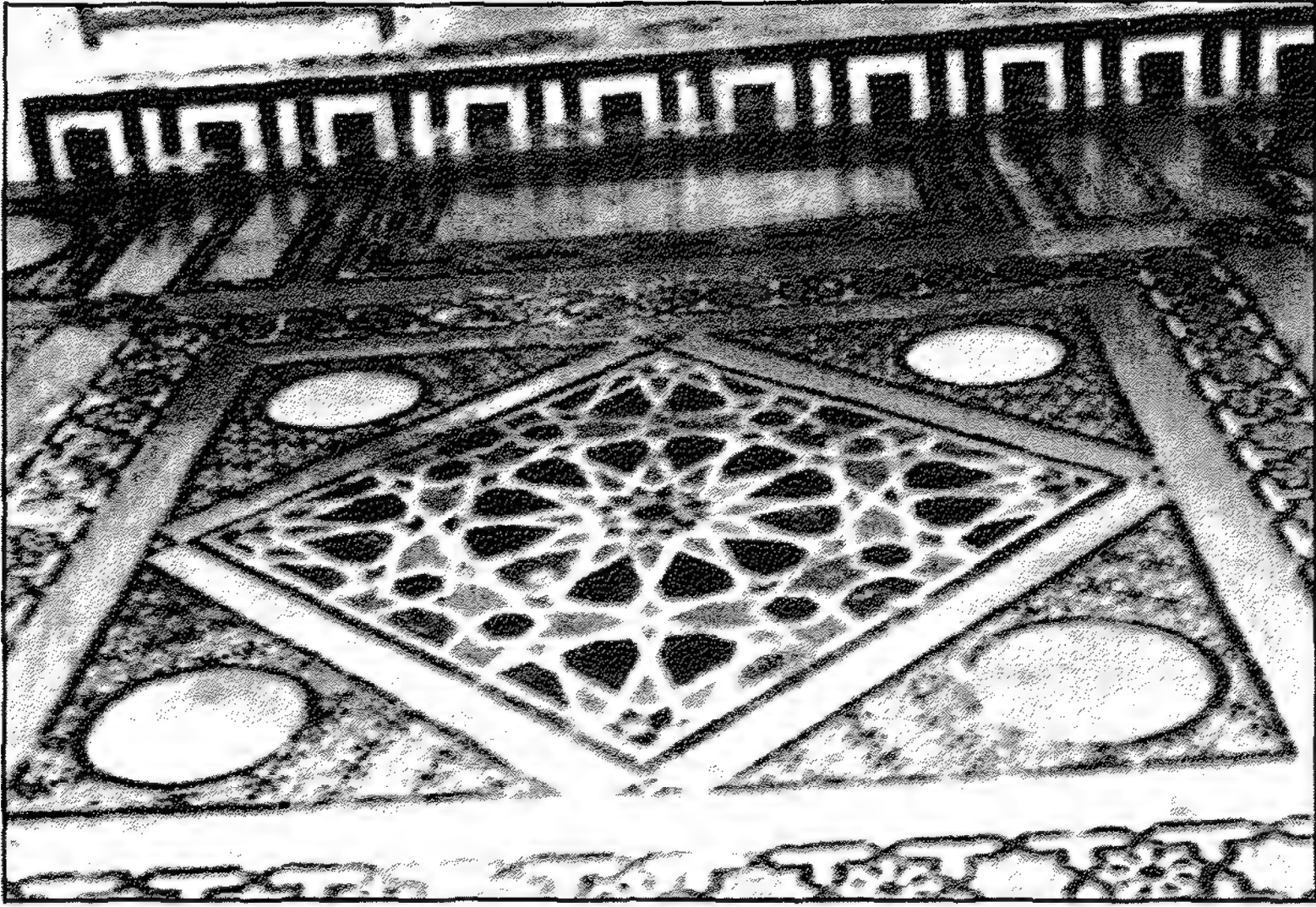


صندوق من النحاس المكفّنة بالفضة ق ٨ هـ

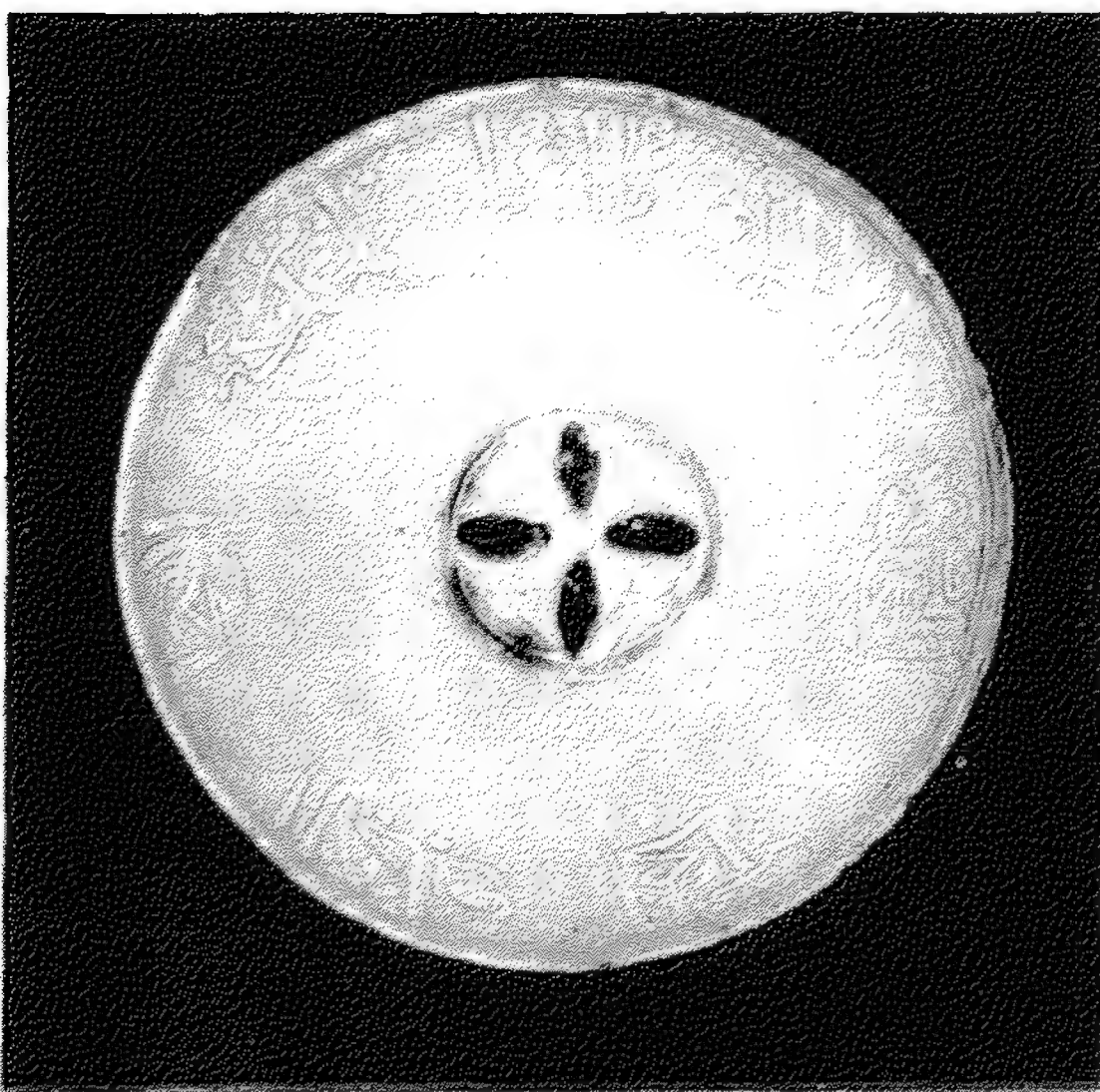
المتحف الخزفية والقاشاني،



ازدهرت الصناعة الخزفية في مصر في عصر المماليك متأثرة بصناعة الخزف الإيراني. وانتشرت صناعة الخزف ذي الزخارف تحت الطلاء باللونين الأخضر والأسود. وبالمتحف الإسلامي بالقاهرة قطع خزفية من أواني وجدت في حفائر الفسطاط حيث كانت توجد مصانع الخزف في العصر المملوكي.



أرضية من الرخام مسجد قلعة قايتباي - الدور الأرضي



وفي نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ظهرت في مصر المملوكية صناعة القاشاني الذي تُكسى به الجدران، ومن أمثلة هذا القاشاني المحفوظ في متحف الفن الإسلامي قرص مصنوع في مصر باسم السلطان قايتباي يرجع تاريخه إلى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م ونص الكتابة عليه « عز لمولانا السلطان، الملك الأشرف أبو النصر قايتباي، عز نصره ».

طبق خزفي القرن ٨ هجري



لوحة من الزخارف الجصية - السلطان قايتباي



قنية زجاجية مموهة بالمينا -

سنة ١٣٠٠

- التحف الزجاجية :

لقد صنع الفنانون
فى عصر المماليك من
الزجاج القوارير والأباريق
والكؤوس والمصابيح
والزجاجات، وأجمل ما



صنع فى ذلك العصر المشكاوات، وهى
بحق فخر عصر المماليك فى صناعة
الزجاج. وقد وصلتنا مجموعة كبيرة منها
محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة،
وهى تعد أكبر وأنفس مجموعة من
المشكاوات فى العالم. وقد طليت هذه
المشكاوات بالمينا وعليها زخارف قوامها
أشرطة تملؤها كتابات أو جامات وفروع
نباتية، وتغطى سطح بعضها رسوم زهور
ونباتات، وقد وردت على كثير من
المشكاوات الآية القرآنية الكريمة : ﴿الله
نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة
فيها مصباح﴾.

وأكثر أسماء السلاطين وروداً على
هذه المشكاوات اسم السلطان حسن، الذى
جلب من مسجده أكبر عدد منها، ثم
الناصر محمد بن قلاوون، ثم السلطان
برقوق، ثم السلطان قايتباي.



مشكاة زجاجية مموهة بالمينا - من الناصر محمد
لروح السلطان سيف الدين قُطرز

غروب شمس دولة المماليك





أولا المصادر:

- ابن إياس (محمد بن أحمد) ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م .
«بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، المجلد الأول ، طبعة بولاق ١٨٩٣ .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م .
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ، ١٣ جزء ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣ .
- ابن عبد الظاهر (محيى الدين أبو الفضل) ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م .
«تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور» ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ .
- السخاوى (شمس الدين محمد) ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م .
«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ، ١٢ جزء ، القاهرة ١٩٣٦-١٩٣٤ .
- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : ٩١١هـ / ١٥٠٥م
«تارىخ الخلفاء» ، تحقيق محمد محىى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٤ .
- «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» ، جزءان ، طبعة دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٨ .
- العمرى (ابن فضل الله) ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م .
«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ، ٢٠ جزءا ، (مخطوط) بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ
- القلقشندى (شهاب الدين أحمد) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م
«صبح الأعشى فى صناعة الانشا» ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢ .
- المقرئى (تقى الدين أبو العباس أحمد) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م .
«إغائة الأمة بكشف الغمة» ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .
- «السلوك لمعرفة دول الملوك» ، نشر محمد مصطفى زيادة ، ج ١ ، ٢ ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٤١ .



وتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ج٣، ٤، القاهرة ١٩٣٩-١٩٧١.

«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، جزءان، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ/
١٩٢٢م.

ثانياً : المراجع العربية :

- إبراهيم على طرخان : «مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة»، القاهرة
١٩٥٩.

- أحمد السيد دراج : «المماليك والفرنج»، القاهرة ١٩٦١.

- رونسيما، س : «تاريخ الحروب الصليبية»، ترجمة السيد الباز العرينى، جزءان، بيروت
١٩٦٨.

- سعيد عبد الفتاح عاشور : «الأيوبيون والمماليك فى مصر والنمام»، القاهرة ١٩٧٠.

«الحركة الصليبية»، ج١، القاهرة ١٩٦٣.

«قبرس والحروب الصليبية»، القاهرة ١٩٥٧.

«مصر فى عصر دولة المماليك البحرية»، القاهرة ١٩٥٩.

- السيد الباز العرينى : «المماليك»، بيروت ١٩٦٧.

- شحاتة عيسى إبراهيم : «القاهرة»، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٠.

- عطية القوصى : « تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى » ، القاهرة
١٩٩٧.

«تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية»، القاهرة ١٩٧٦.

- على إبراهيم حسن : «دراسات فى تاريخ المماليك البحرية»، القاهرة ١٩٤٨.

- محمد جمال الدين سرور : «دولة بنى قلاوون فى مصر»، القاهرة ١٩٤٧.

«الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره»، القاهرة ١٩٣٨.

- نعيم زكى : «طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب»، القاهرة ١٩٧٣.

- هايد، ف : «تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى»، جزءان، ترجمة أحمد
رضا، القاهرة ١٩٩١.

ثالثا المراجع الأجنبية :



- Atiya, A.S. : “Crusade, Commerce and Culture”, London 1962.
- “The Crusades in Later Middle Ages”, v.II, London 1938.
- Muir, S.W. “The Mamluke Slave Dynasty”, Amesterdam 1968.
- Newton, A.P. “Travel and Travellers of the Middle Ages”, London 1930.
- Pirenne , H. : “ Histoire économie et social du Moyen Age”, Paris 1951.
- Quatremère, E.: “Histoire de Sultans Mamlouks de l’ Egypte”, Paris 1837 - 1845.
- Stanely Lane - Pool: “A History of Egypt in the Middle Ages”, London 1930.
- Wiet, Gaston: “L’ Egypte Arabe”, T.IV, Paris 1937.

□



١

مقدمة

٣

تمهيد

٨

الفصل الأول: دولة المماليك البحرية

٤٤

الفصل الثاني: دولة سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة)

٧٦

الفصل الثالث: الجانب الحضاري - أهم الآثار المعمارية الباقية من

عصر سلاطين المماليك

٩٢

المصادر والمراجع

٩٥

المحتويات



Abstract

This work depicts one of the glorious chapters in the history of Egypt and the Islamic world. It is the age of the Mamluk Sultans who, though aliens in origins, were soon absorbed completely by the Egyptians and Islamic traditions.

The Mamluk era lasted for three centuries, and produced wonderful leaders such as Baybars, Qutuz, and Qalawoon. They have managed to defeat both the Crusaders and the Mongols consequently in the battles of Ain Galwoot 1260 A.D, and the battle of Acre 1291 A.D. Thus, the whole area was liberated from the attacks of Hulagu, and Timour Lang (Timer lane).

The Mamluk Sultans built up a powerful empire and a glorious civilization in all levels. The visitor to Egypt will marvel at the architectural masterpieces, particularly in Cairo of Al-Muezz. Each single stone from that epoch bears the smell of history.

Dr. Attia El- Qossi



Encyclopaedia Introduction

History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR: THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

P. Said Abd El-Fattah Ashour	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Cairo University. Chairman of the Arab Historians Union.	Chairman
P. Adel Hassan Ghoneim	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	General Coordinator
P. Abd El-Halim Nur Eldin	Professor of Ancient Egyptian Language - Faculty of Archaeology - Dean of the Faculty of Archaeology, Fayyoun Branch, Cairo University. Director of the Centre of Calligraphy, Bibliotheca Alexandria.	Rapporteur of Ancient History Series
P. Ishak Ebeid	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Ain - Shams University	Rapporteur of Medieval History Series
P. Essam El-din Abd El-Raouf	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	Rapporteur of Islamic History Series
P. Gamal Zakariya Kassem	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	Member
P. Attiya Al-Qoussy	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	Member
P. Saber Diab	Professor of Islamic History - Dar El-Ulum Faculty, Fayyoun Branch, Cairo University.	Member
P. Raafat Abd El-Hamid	Dean of the Faculty of Arts (Formerly) - Ain - Shams University & Professor of Medieval History.	Member

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary

Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

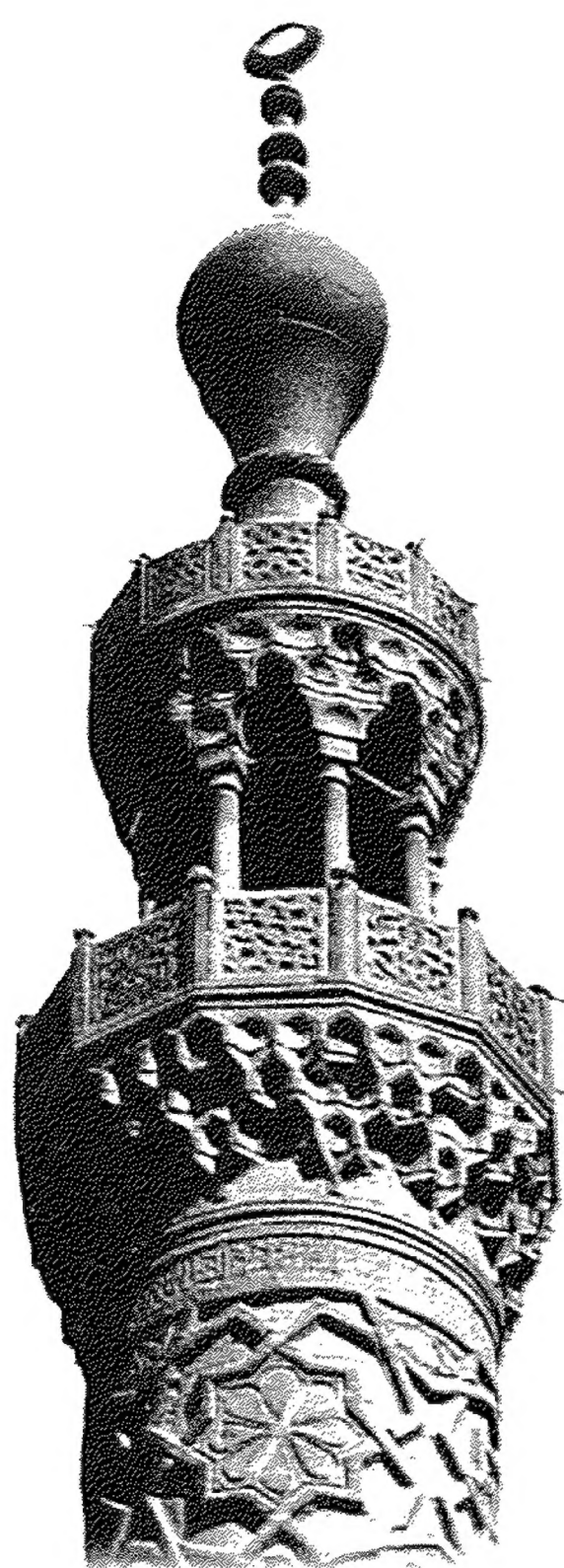
Tel.: 2752984 Fax: 2752735

**www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com**

**The Encyclopaedia of History,
Archaeology and Civilization**

Medieval History

21



The Age of Mamluk Sultans in Egypt

Dr. Attia El- Qossi

Publisher

Dar Al-Fikr Al-Arabi

94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo

tel : 22752794 . Fax : 22752735

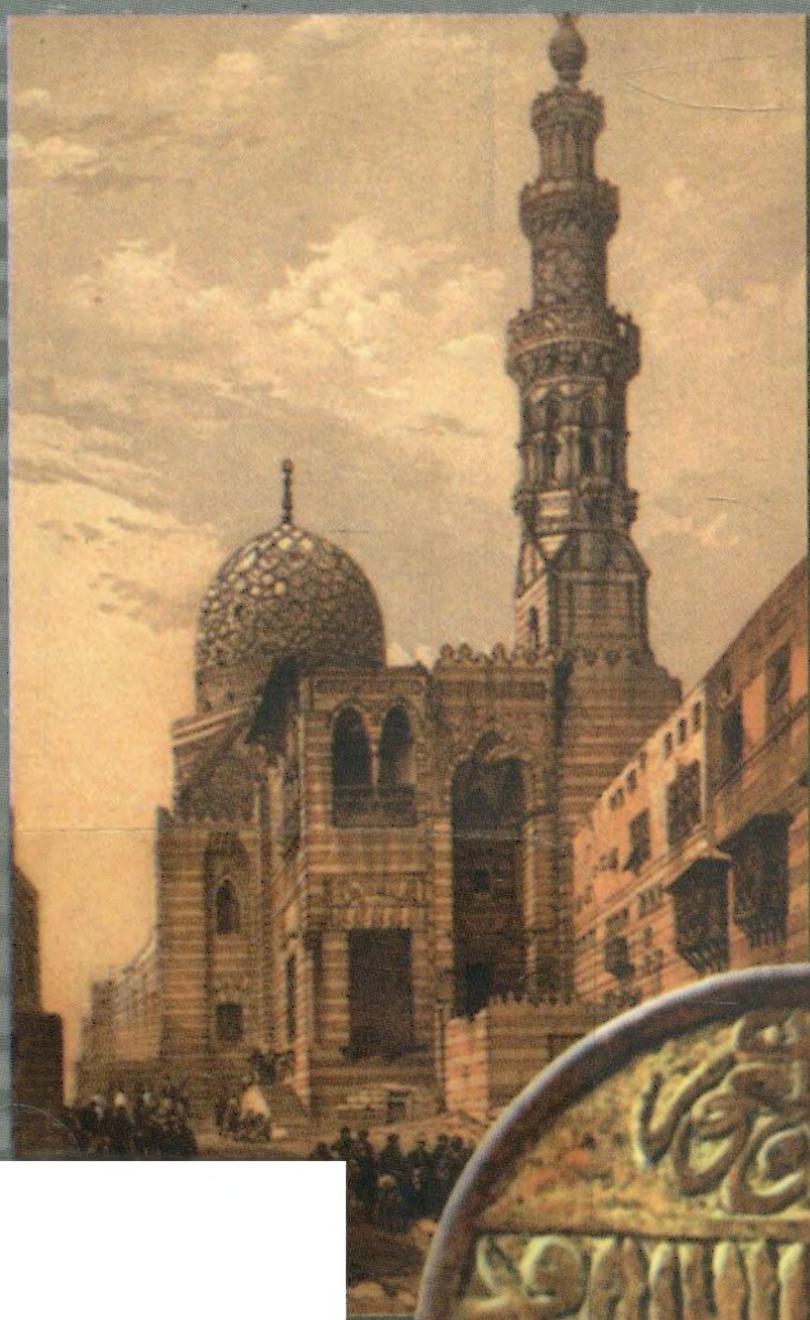
www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia
of **History,**
Archaeology
and Civilization

Medieval History

21



The Age of Mamluk Sultans



Dr. Attia El- Qossi

